نجيب الكيلاني

النّداء الخالد

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

النداء الخالد

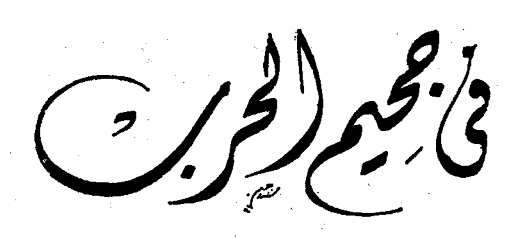
الطبعة الرابعة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

القسم الأول



الفصل الأول

انطلقت صيحة ملتاعـــة من بيت «عبد العزيز شلبي» ، وتردد صداها في أفق القرية الواجمة ، فمزقت سكون الليل الدامس ، ولم يكن من المتوقـــع أن تمضي هذه الصرخة سدى ، أو يتبدد صداها دون أثر ، إذ سرعان مـــا تيقظ الكثيرون من أهل القرية ، نحو بيت «عبد العزيز شلبي» يستجلون حقيقة الأمر ، حقاً إن الأيام كانت كلها أيام كوارث وخوف وعذاب ، وليس غريباً أن تسري في أرجـــاء القرية قصة جديدة ، تروي سطور مأساة حديثة ، ومع انتظار المصائب ، إلا أن شغف الناس للإلمام بها ، ومعرفة خباياها ، يدفعهم دفعاً إليها ، لعلهم يخففون قليلاً من حدتها ، أو يعزون أنفسهم بنكبات غيرهم .

وتسابقت المشاعل الواهنة المرتعشة نحو البيت ، وتجمهروا أمامه .. كانت سيدة البيت — زوجـــة عبد العزيز شلبي — تلطم خدودها ، وتشق ثيابها ، وتلطخ وجهها ويديهـــا بالطين ،

وكان وحيدها أحمد ـ الطالب بمدرسة المهند سخانه ـ يقف ذاهلاً في ركن من أركان باحة البيت الواسعة ، وقد تورمت عيناه ، واحتقنتا من شدة البكاء ، لكن قبضتيه كانتا متكورتين وكأنه يهدد عدواً لا يظهر للعيان ، ووقف الناس أمام هذا المشهد حائرين ، وانبعث صوت مرتجف لامرأة عجوز تحمل في يدها المعروقة مصباحاً زيتياً متسخاً وقالت :

ـ ماذا جرى يا أم أحمد ؟

ولم تعرها « أم أحمد » أي التفات ، فلقد بدت المسكينة وكأنها قد أصبحت فريسة لنوبة من نوبات الجنون المدمر ، كانت تدق صدرها ، وتضرب رأسها في الحائط ، وتشد خصلات شعرها تريد اقتلاعها ، والتف بضعة نفر حول « أحمد » وقال أحدهم :

ـ خير يا ولدي ؟

قال « أحمد » وهو يصر على أسنانه :

ـ فعلها .. خلاف عبد المتجلي .. أجل .. حضرة العمدة هو الذي فعلها .

وران على الجميع صمت رهيب ، وشل الخوف ألسنتهم عن النطق ، وأوقف أعضاءهم عن الحركة ، وتسمروا في أماكنهم كتماثيل من حجر ، ولكن « الشيخ عنبة » ـ وهو صاحب

محـــل بقالة صغير ــ وثب من بينهم ، واقترب من « أحمد » وقال :

ــ لتشرح لنا الأمر يا أحمد أفندي .

قال أحمد وهو يجفف دموعه :

ــ إن ما حدث يحدث كل يوم منـــذ أن اشتعلت الحرب عام ١٩١٤ . ألا تعرفون ؟ كلكم لا تجهلون الحقيقـة المرة .. والعمدة يستغل الظروف القاسيـة ، ويدوس على ضميره وينتقم من أعدائه ، لقد دبر الأمر بليل ، وهكذا قبضـــوا على أبي في مدينة « زفتي » اليوم .. قبضت عليه السلطة كي يبعثـــوا به إلى ميدان القتال في خدمة القوات الإنجليزية .. كي يعبد الطرق ، ويشق الترع في أعمال السخرة .. التي تستلزمها الحملة الجديدة الـتي تواجه الأتراك في الشام .. لقد ذهب أبي .. أرشدهم العمـــدة إليه .. رأيت ذلك بعيني .. وغداً سوف يقبضون على سبعين منكم ليلحقوا بـه .. ولن يعودوا إلينـــا مرة أخرى .. وان يعود أبي .. سيموت في لهيب الصحراء كما يموت الآلاف غيره .

وكانت دموع « أحمد » تنهمر ، وعرقـــه يسيل غزيراً ، والنظرات المذعورة تتركز على وجهـــه المحتقن المنفعل ، وساد الجميع شعور بالمرارة لا يرحم .. هذا الشعور يبدو ، وكأنـــه

حبل متين يلتف حول رقابهم في قسوة ، بغية إزهاق أرواحهم .. لم يعد للحياة معنى ، وقد امتلأت بالرعب والمظالم والجوع .

كان « الشيخ عنبـــة » لا يترك مناسبة تمر دون أن يعلق عليها ، ولم يكن التعليق من بنات أفكاره ، فقد كان يحفظ كلمات « الشيخ جمال الدين الأفغاني » ومقالاتـــه عن ظهر قلب لطول ملازمتـــه إياه أيام أن كان طالباً في الأزهر ، وكان يطلق على الأفغاني كلمة « حبيبي » فما أن سمع ما قاله « أحمد » حتى شحب وجهه وارتعشت شفته وتمتم :

ـ يقول حبيبي : إن الأزمة تلد الهمة .

ولم يكن أحمد في وضع يسمح له بأن يتلقى حكم الشيـــخ ، وكلماته البليغة ، ولهذا صرخ :

ـ لكن حبيبك لم يقل : لماذا يساق أبي كما تساق العبيـــد ؟ ولماذا يحارب ؟ هل الإنجليز سيكونون أحنى علينا من الأتراك ؟ وأبي .. أبي مريض وكبير السن .. ولن يعود .. أتفهمـــون .. وأنتم عندما تذهبون لأعمال السخرة لن تعودوا .. وسيظل نساؤكم وأطفالكم في حزن دائم ، ويعيشون على الأمل والدموع .. ولن يعود أحد منكم .

انفض الجميع ساهمين ، وبقي أحمد وأمه واجمين ، وعرفت القرية كلها أن العمدة « خلاف عبد المتجلي » كان يحقـــد على

« عبد العزيز شلبي » لأنه منافسه الأول على منصب « العمدية » ، ولأنه ميسور الحال ، ويحظى برصيد هائل من حب الناس وتقديرهم له .. و « عبد العزيز » – وإن لم يكن العمـــدة – إلا أنه كان الرجل الأول في القرية بدون منازع ، له من صلاحه وبره ونبله ما جعله مسموع الكلمة ، نافذ الرأي ، تلاحقه الدعوات الطاهرة أينما سار ، ويستجيب الناس لدعوته في أي وقت .

وانطفأ المصباح في بيت شلبي .

وساد الظلام والسكون .

وبقيت العيون الأربعة مفتوحة تذرف الدموع .

والفجر لم يكن قد أشرق بعد .



الفصل الثاني

نام الأطفال ملء جفونهم ، وارتسم على وجوههم النحيلة براءة وطهر ، وانبعث غطيطهم خافتاً ، إلا البالغين من النساء والرجال ، فقد خاصم النوم عيونهم ، وكيف ينامون والمأساة الجديدة تنسج خيوطها غداً ؟ آه .. ما أشد رعبهم من الغد !! إنهم يعيشون على حافة هوة سحيقة ، ولا يدرون متى تدفعهم يد الشيطان إلى أعماقها السوداء المجهولة . ليتهم يعرفون مصيرهم منذ الآن فيستشعرون بعض الراحة ؛ لشد ما تصدق الحكمة الشعبية الخالدة « وقوع البلاء ولا انتظاره » .. ولم لا تساورهم الهواجس، وتلعب بهم الظنون ، وهم لا يدرون هل ينامون تحت أسقف بيوتهم ، ووسط ذويهم في الليلة القادمة أم لا . ؟ إنهم جميعاً يقضون ساعة وداع غير محددة .. إنه العذاب بعينه ، العذاب الذي يحمل في طياته القلق والضياع .

وفي الصباح تكشفت الحقيقة . لقد صدق « أحمد افندي شلبي »

فيما زعم بالأمس . ها هو العمدة يخب في قفطانه وجبته السوداء ، يتبعه شيخ الخفراء والخفراء .. العمدة يمضي في عجرفة واعتداد بالنفس ، واكفهرار وجهه يوحي بالوعيد والتهديد ، إنه لا يدرك عمق المأساة .. لا يعرف أن الناس حرموا النوم في الليلة الفائتة ، ولأنه هو نفسه لم يذق للنوم طعماً ، إذ ظل يفكر في أعدائه ، ويحصي عدد المشاغبين والمناوئين لسلطانه كي تسوقهم السلطة إلى بعيد . وظل ساهراً يفكر في عدد الدجاجات وأزواج الحمام والوليمة الكبرى التي سيقيمها لرجال الإدارة ، حتى يظهر أمامهم بمظهر الرجل الثري الفخم الذي يملأ مركزه ويليق بمنصبه . وشتان بين أسباب الأرق عند العمدة وعند غيره من الأهالي !! هو في واد وهم وفي واد آخر ، وبين الواديين مسافة شاسعة من الكراهية والعنجهية والأنانية .

وكانت أوامر حضرة العمدة ، وهو يجوب طرقات القرية ، في حراسة سلاح الخفراء واضحة محددة ، فقد خرج « عبد الغفار الطبال » ذلك الشاب العليل الأعرج ، يصيح بصوته الرنان قائلاً :

– يا أهل البلد .

اسمعوا التنبيه .

والحاضر يعلم الغائب .

ممنوع مغادرة البلد .

ممنوع الذهاب للغيط .

البيه المأمور قادم اليوم .. ومعه مندوب السلطة .

ومن يخالف الأوامر ذنبه على جنبه .

يا أهالي البلد .

كان صوت « عبد الغفار الأعرج » يتردد في آفاق القرية وكأنه صفارة إنذار متقطعة تزرع الرعب في النفوس ، وسار خلفه مئات الأطفال يثيرون الضجيج والغبار ، أما الرجال فقد وقفوا جامدين مذهولين ، وأطلت النسوة من النوافذ والأبواب تترقرق في أعينهن الدموع ، ولم يستطع « الشيخ عنبة » أن يكظم غيظه ، فقد ارتجفت لحيته الكثة التي تشبه إلى حد كبير « لحية جمال الدين الأفغاني » وصاح بأعلى صوته :

ـ هذا ظلم .. إنهم يسوقون الناس إلى الفناء دون جريرة .. مالنا ، وللحرب ؟؟ »

فرد عليه « الخواجة يني » ـ وهو يوناني يهودي مستوطن يملك في القرية مئات من الأفدنة ، وله تجارات واسعة ـ وقال الخواجة :



يا أهل البلد.. اسمعوا التنبيه.. والحاضر يعلم الغائب..
ممنوع مغادرة البلد .. ممنوع الذهاب لغيط

ـ لكن الحرب قامت « يا شيخ عنبة » دفاعاً عن الحريات . . وعنكم أيضاً . . لقد أذلكم الأتراك سنين طويلة . .

فلوّح « الشيخ عنبة » بيده في استنكار قائلًا :

ـ فليكن من أشعلوا الحرب هم وقودها .. فليدعنا الإنجليز . وعندما يقع علينا عدوان فنحن جديرون بالدفاع عن أنفسنا بالطريقة التي تناسبنا .. إنها حرب لإبادتنا وإفقارنا .. نحن وقودها .. هل هذا يرضيك يا خواجه ؟

وانشغل الخواجه عن « الشيخ عنبة » فقد أتى عميل يريد شراء جوال من الأرز ، وقدم آخرون للمساومة في شراء كمية من الأخشاب ، وقال الخواجة وهو يدلف إلى متجره :

ـ الشيخ عنبة عاطفي جداً . . وسوف يجر عليه حماسه الوبال . . هذا كلام يحاكم عليه عسكرياً . . إنه ينسى دائماً من يكون هو بالنسبة للإنجليز ، وينسى أن الأحكام العرفية معلنة ، ولا يريد أن يعترف بأن مصر تحت الحماية البريطانية منذ عامين ونصف . . هذا الضعيف المسكين ، ينسى فلسفة الأقوياء . .

وطار النبأ المشؤوم في كل مكان ، وبقي الناس ينتظرون المصير المظلم .. لا شك أنه لن ينجو من النكبة أحد ، فمن

لا يصيبه الدور قد يأخذون أخاه أو أباه أو أحد أقربائه ، ولهذا لن يكون هناك بيت دون أن تقام فيه مناحة . . ستكون النكبة عامة إذن ، ولن يترك قب واحد دون أن يمسه الحزن ، ولا تبخل عين بدمعها الغالي ، ومن يدري فقد يمس الحزن قلب العمدة نفسه ذات يوم ، وقد تفيض عيناه بالدموع الغزار .. فما أسرع تقلبات الزمان في تلك الآونة العصيبة .

والتقى الشيخ عنبة بأحمد افندي شلبي ، كان الشيخ ثائراً مهتاجاً ، بينما اصطبغت ملامح « أحمد » بشحوب واضح ، يتسم بالصرامة المشوبة بالحزن ، وتمتم أحمد :

ـ العمدة أداة قذرة في يد الظلم .

وهز « الشيخ عنبة » رأسه قائلاً :

ـ لا .. أفندينا خان الأمانة .. السلطان حسين كامل هو الأداة القذرة .. إنه لا يعترض ، ولا يقول للانجليز كلمة احتجاج واحدة ، ووزراؤه على شاكلته .. ولا غرابة في ذلك .. لأنهم (الإنجليز) هم الذين ألبسوه التاج بعد أن انتزعوه من فوق رأس عباس حلمي الثاني . . وما أكثر ما تنطبق كلمات جمال الدين الأفغاني على سلطاننا .. يقول حبيبي : « إن هذا السلطان سل في رئة الدولة . . »

واحتد « أحمد » قائلاً :

– لماذا نخدع أنفسنا دائماً ؟ لماذا نلقي التبعة كلها على الإنجليز والسلطان ؟

– لأنها حقيقة لا مراء فيها ..

– بل الحقيقة أن خنوعنا واستسلامنا هو الكارثة .. ألا تفهمني يا شيخ عنبة ؟؟ ماذا يحدث لو امتنع صاحب كل سلطة عن تلبية أوامر السلطان والإنجليز ؟؟ تصور لو أن عمد القرى والأعيان ومأموري المراكز ، وكل المصريين في أنحاء السلطنة قاموا بعصيان شامل . . عند ذاك يقف دولاب العمل ، ويفيق الظلمة إلى رشدهم ..

فابتسم « الشيخ عنبة » في مرارة وقال :

– عند ذاك تعم المذابح أنحاء القطر ، ويغرقون الأبرياء في بحر من الدماء .

– ليكن .. إذ لا بد من التضحيات .

– التضحية يجب أن تكون منظمة ومدروسة يا أحمد أفندي ...

وشرد « أحمد » بضع لحظات ، ووثبت إلى ذهنه صورة واضحة لأبيه الطيب المسالم ، الذي كان يبدو في ثيابه البيضاء النظيفة ، وعمامته المنسقة الأنيقة ، وابتسامته المشرقة التي لا زيف

فيها ، وكأنه ملاك هبوط لتوه من السماء . ما مصيره الآن ؟ هل ما زال حبيس السجن بالمركز يقبع في ركن مظلم ، ويفترش الأقذار ، يعذبه التفكير ، وتعوقه القوة الغاشمة عن الانطلاق ولقاء الناس الذين يحبهم ويحبونه ، وهمس « أحمد » دون وعي وقد آلمته الذكرى :

ـ لسوف أنتقم يوماً من « خلاف عبد المتجلي » . . هذه الأداة القذرة .

قال « الشيخ عنبة » معاتباً :

ـ لا تنس أن مئات بل ألوفاً مثل أبيك يحترقون بلهيب الظلم .. أبوك واحد منهم .. المأساة عامة .. ولهذا يجب أن نناقشها ، على صعيد عام ، وقد نجد لها حلاً جذرياً . حلاً لا يكون نتيجته إنقاذ أبيك وحده والانتقام له ، بل إنقاذ الملايين المعذبة ...

كان « الشيخ عنبة » كبيراً في أفكاره .. كبيراً في تعبيره عن المأساة الكبرى ، وكان لرنة العتاب البادية في حديثه أثر عميق في قلب « أحمد شلبي » الذي غمغم :

ـ آسف .. لقد هدتني نكبتي في أبي حتى لم أستطع أن أفكر في ضحية سواه .. كان بيننا بالأمس يا شيخ عنبة . وها هو اليوم في طريقه إلى المجهول .. إلى رحلة خطيرة لا يعلم إلا الله مداها ..

ولا ندري هل يعود أم لا . أقسم لك أن « أمي » ستموت غماً وكمداً .. وأنا لست أدري كيف أستقبل العام الدراسي .. أصبحت كاليتيم ...

قال الشيخ عنبة :

– كلنا كاليتامى ..

– لكن أبي لم يمت .

واستطرد منفعلاً : « سيحيا .. وسيحيا .. »

وكادت الدموع تنفرط من عينيه ، لكنها تجمدت في محاجرها، وقد فوجيء بكوكبة من الفرسان تشق طريق القرية الرئيسي ، وتثير غباراً عالياً ، والعمدة يجري أمامها يلهث وقطرات العرق تلمع فوق جبينه الضامر الأسمر .. والخفراء ينطلقون في كل مكان ويطلقون صفاراتهم . . وفي المقدمة مأمور المركز ، وضابط إنجليزي، والصمت الكئيب ينشر رواقه في جنبات القرية . ولشدة ما تعاورهم من الرعب . لم يعودوا يستشعرون الرعب . فقد أصبح الناس أشبه بالموتى .

وشق السكون صوت جريح عالي النبرة :

– يسقط الظلم .

وكاد « الشيخ عنبة » يغمى عليه من هول المفاجأة .. إن

صاحب الصوت هو « أحمد شلبي » ، وفي لمح البصر أسرع « الشيخ عنبة » وسد فم « أحمد » بكفه في قوة .. ثم دفعه إلى أقرب باب، وقذف به داخل البيت ، وهو يقول :

ـ هل جننت ؟ ما جدوى ذلك ؟ أنت تنتحر يا ولدي .

قال « أحمد » وهو ينشج نشيجاً عالياً :

ـ لم أستطع الصمت . . انطلق صوتي على الرغم مني .. إنني أرى بعيني الجلادين الذين ساقوا أبي إلى المصير الأسود .

ونظر الضابط الانجليزي إلى المأمور متسائلا .. فرد عليه المأمور بلغة إنجليزية سليمة قائلا :

ـ إنه هتاف الترحيب .

فافتر ثغر الضابط عن ابتسامة واسعة .. وقال ما معناه :

ـ إنه شيء رائع .. ما كنت أحسب أن الفلاحين على هذه الدرجة من الوعي .. حقاً .. الجميع يدركون المهمة الكبرى الملقاة على عاتقنا ونحن ندافع عن الحريات ضد ألمانيا وتركيا .. لكم شكري وتقديري يا حضرة المأمور . وأعتقد أن مهمتنا هنا ستكون سهلة .

فتمتم المأمور شاحب الوجه .. دون أن يستطيع إخفاء

ما ساوره من حيرة وقلق :

– بالطبع .. بالطبع .

وأخذ الضابط الإنجليزي ، يرمي بنظراته هنا وهناك ، ويدقق البصر في الوجوه التي تقبع خلف النوافذ والأبواب النصف مغلقة .. وفي الصبايا الواقفات فوق الأسطح على أكداس الأحطاب الجافة .. ويستمع إلى خوار الثيران ونهيق الحمير ونباح الكلاب .. وكأن جميع الحيوانات في مظاهر عدائية ، ومع ذلك فقد قال الضابط ذو الوجه الأحمر :

– إن ريفكم جميل يا حضرة المأمور .

– بعض ما عندكم يا سرجنت .

– ومليء بالخيرات .

– فضلة خيركم يا سيدي الضابط .

– ونسبة الجمال هنا كبيرة .. لكنه – لست أدري لماذا – جمال حزين .

– أجل .. أجل .. حزين يا سيدي .

– ومع ذلك يا حضرة المأمور فإن هذا الحزن يضفي على هذا الجمال إثارة وجاذبية .

– بالضبط .. بالضبط ياسيدي .

وشدت أسماعهم قهقهة عالية ، فمدوا أبصارهم يستجلون ما حدث .. فرأوا حضرة العمدة وقد تعثرت قدماه ، فسقط على الأرض .. حتى تغبرت جبته وقفطانه .. وانقذفت عصاه ومسبحته إلى بعيد .. بينما أغرق « عبد الغفار الطبال » الأعرج في الضحك وحده .. فبادر المأمور قائلاً :

ـ هذا الأعرج الذي يضحك مجنون .. أقسم أنه مجنون يا سيدي الضابط .

فعلق الضابط بقوله :

ـ إن منظر العمدة بعوده القصير ، وهو يتدحرج كالكرة ، بين أقدام اللاعبين .. منظر يبعث على الضحك فعلاً .. لماذا لا يضحك الناس جميعاً ؟

قال المأمور متلعثماً :

ـ فعلاً .. لماذا لا يضحكون ؟

وأخذ المأمور يضحك ضحكات هستيرية .. ثم استجمع شجاعته وقال متردداً :

ـ الآن فهمت . إنهم لا يضحكون احتراماً لجنابك .

ومضى الموكب .

كان « أحمد » في البيت الصغير يجفف دموعه .. وإلى جواره « عنبة » .. وهتف « أحمد » وفي عينيه لمحة من جنون :

ـ لماذا لا ينقض أهالي القرية بفؤوسهم على هذه الكوكبة من الرجال ويقضون عليها ؟ لماذا ؟

فسدد إليه « عنبة » نظرات صارمة وقال :

ـ دع هذه الأفكار الصبيانية .. وكن رجلًا .

فتطلع « أحمد » إلى وجهه ، ورأى الجد كل الجد على ملامحه ، فطأطأ رأسه في حزن .. وتمتم :

آسف .. آسف يا شيخ عنبة .

الفصل الثالث

حينما التأم شمل المأمور والعمدة والضابط الإنجليزي بدؤوا في تنفيذ العمل الموكول إليهم على الفور ، فأخرج الضابط ورقة مطوية من جيبه ، ثم نشرها وأخذ يرطن بكلمات إنجليزية والمأمور يستمع إليه في اهتمام ، وفهم العمدة منها بعد لأي أن المطلوب هو حشد عدد جديد من المتطوعين لترحيلهم إلى مناطق القتال ، وكان الجميع يعرفون أن لفظ « المتطوعين » إنما يقال للتمويه والكذب ، لأن الأفواج الأولى إنما سيقت سوقاً على الرغم منها ، دون أن يكون لها حق الاعتراض أو التخلف ، فلم يكونوا إذن متطوعين وإنما مسخرين لأعمال – غير حربية – كشق الطرق وسط الصحارى وعبر الجبال ، ونقل المؤن والمعدات ، والقيام على خدمة القوات الإنجليزية وإجابة مطالبها في أية بقعة في الشرق الأوسط وصحراء ليبيا وفي قبرص واليونان وسيناء وغيرها .

وقال الضابط الإنجليزي :

– نحن نريدهم من الرجال الأقوياء ذوي الجلد على الصبر والكفاح .

فابتسم المأمور قائلا :

– بالطبع .. هذه ليست أول مرة .. ونحن نعلم الشروط والمواصفات جيداً .

ولم يكن هذا هو كل ما يريدون ، فقد أخرج الضابط الإنجليزي أمراً بالاستيلاء على مزيد من الحمير والأغنام والمواشي وألا يترك منها إلا الهزيل أو المريض ، لاحتياج القوات المحاربة إليها ، ولم يفته أن يلمح إلى أن ثمن هذه الحيوانات سوف يؤدى لأصحابها في وقت قريب ، وبالطبع لم ينس الضابط الإنجليزي موضوع الاستيلاء على كميات معينة من القمح والشعير والذرة ، ولفت نظر العمدة إلى التنظيم الجديد الخاص بزراعة الأرض ألا وهو تقليل المساحة المنزرعة قطناً وزيادة المنزرع من الحبوب لما تتطلبه المعركة من مواد تموينية كثيرة .

ودارت رأس العمدة .. « يا لها من مهمة شاقة . »

سيأخذون الرجال ..

ويأخذون الحيوانات .

ويأخذون الحبوب .

والعمدة لا يفكر في الأثر المترتب على سلب هذا كله ، ولا يفكر في الضائقة التي ستحل بأهــل القرية ، أو الجوع الذي سينشب أظفاره فيهم ، أو الحزن الذي سيلون الحياة بلونــه الشاحب في كل بيت يسوقون رجاله إلى الموت . . العمدة لا يفكر في كل هذا بقدر ما يفكر في الوفاء بالتزاماته التي يطلبهــا رجال الإدارة ، وهل سيستطيع أن يستولي على الحبــوب اللازمة ؟ ؟ وهل يتمكن الفلاحون من تقديم العدد المطلوب من الحمير والأغنام والبهائم ؟ ؟ وهل سيتقدم الشبان والرجــال أم سيفرون إلى الحقول والجهات النائية ، حتى لا يرموا بأنفسهم في جحيم حرب ليست من صنع أيديهم ، وليس وراءها غير الخراب والدمار والموت والاستغلال ؟ ؟

ومال المأمور على أذن العمدة هامساً :

ـ ماذا تنتظر ؟

فانتفض العمدة قائلاً :

ـ أوامركم يا سعادة البيه ؟

ـ حسناً .. نريد الرجال والحيوانات والحبوب .

وهرول العمدة إلى باحة الدوار الواسعة المفروشة بالرمــال النظيف ، ثم صعد أريكة عالية وجمع أمامه الخفراء وأخرج عدداً

من القوائم وفي كل قائمة بضعة أسماء ، وأخذ يتلو الأسماء واحداً واحداً ، والخفراء يستمعون إليه باهتمام حتى لا يفوتهم اسم من الأسماء المطلوبة ، ثم وزع كل قائمة على اثنين من الخفراء ومعهم اثنان من عساكر الشرطة المسلحين ، ثم أنهى العمدة أوامره قائلًا :

– أحضروا هؤلاء الرجال من تحت الأرض .. ، لو هرب أحدهم خلف السحاب لا بد من إحضاره ، وسوقوهم إلينا مغللين بالحبال ، ومن يبدي أدنى مقاومة اضربوه على رأسه ، أو ألهبوا جسده بالسياط .. أحضروهم بأي ثمن ، ومهما تكبدتم من تضحيات وإلا تعرضنا للملام والعقوبة .. أتفهمون ؟ ؟ أنا عبد المأمور .. وليس في أوامر الحكومة « يا أمي ارحميني » .. إنها أوامر عسكرية يا حبيبي أنت وهو .. هيا ... انصرفوا إلى أعمالكم .

ثم نادى شيخ الخفراء وقال :

– أحضر أكواب الشربات .. تأكد من نظافتها ومن كمية السكر اللازمة ، ولا تنس أطباق الفاكهة ، يجب أن نظهر بالمظهر اللائق يا شيخ الخفراء وإلا حقت علينا سخرية الضيوف ، ولعنة البيه المأمور .

وترامت الأنباء إلى أهل القرية ، وانتشرت أسماء الرجال المطلوبين لجيش العمال على كل لسان ، وامتلأت الشوارع والحارات

بالنسوة اللائي يولولن ويصرخن ويلطمن الخدود . أصبح في كل بيت مأتم ، ولم يكن غريباً أن تنقسم النسوة إلى مجموعات ، وكل مجموعة على رأسها امرأة تندب وتنوح وتلقي بضعة أبيات من الشعر الشعبي الحزين ، والباقيات يرددن وراءها كلمات دامية حزينة ... وامتلأت القرية بعديد من المآسي ، هذا شاب مطلوب للسفر وليس لأبيه غيره ، وآخر لا بد أن يرحل وكان عليه أن يتزوج بعد أسبوع وعروسه تنتظره ، وثالث يحمل في عنقه مسؤولية أسرة كبيرة تضم عديداً من النساء والأطفال . وبعض الرجال لم ير مناصاً من التسليم ، فرفع إلى السماء وجهاً تبلله الدموع وأخذ يردد « سلمت أمري إليك يا رب .. إنني أترك أبنائي المساكين وزوجتي المريضة في رعايتك » وبعضهم أقسم ألا يترك القرية إلا جثة هامدة ، فالموت أهون من تلك الغربة الظالمة التي ليس لها ما يبررها .. والبعض الآخر لجأ إلى سلاح الرشاوي ، وكثيراً ما كانت تأتي بنتيجة طيبة إذا واتت الظروف .

لكن عدد الهاربين إلى الحقول والقرى المجاورة قد كثر ، وأدرك العمدة ما ينطوي عليه هذا السلوك من خطر بالغ يهدده ، فهرول إلى المأمور يستفتيه الرأي ، فقال المأمور :

ـ الأوامر هي الأوامر .. كل هارب يجب أن يطارد . ومن

لا يكف عن محاولات الهرب فليطلق عليه الرصاص فوراً .. وإذا جدت بادرة من بوادر التمرد العام ، فمعنى ذلك إحراق القرية عن آخرها .. فإذا أرادوا أن يحموا أنفسهم من الدنيا فليلجؤوا إلى المقاومة .. وسيرون .

قال العمدة متلعثماً :

أيقاومون وأنا موجود ؟ ؟ مستحيل .. المسألة لا تخرج عن كونها تصرفات مجنونة لبعض الطائشين من الشبان ، وسيساقون إلينا في أقرب وقت .

فمال المأمور على أذن العمدة هامساً :

ــ وطعام الغداء يا عمدة ؟؟

ــ الحمام والرومي والضأن .. مأدبة ليس لها مثيل في مركز زفتي كله .. تأكد من هذا يا سعادة البك .

ــ أريد أن ترفع رأسي يا عمدة .

ــ خدّامك يا بك .

وانتشرت الأوامر الجديدة في أرجاء القرية ، وكان واضحاً أن رجال الادارة عازمون عزماً أكيداً على تنفيذ ما تطلبه الجهات العليا بأي ثمن ، وكان من الحماقة أن يفكر أحد في المقاومة أو الهروب ، ولهذا رأى عقلاء الرجال أن يزجوا النصيحة إلى الشبان كي يثوبوا إلى رشدهم وليعتصموا بالحكمة ، ويجنبوا أهلهم وقريتهم

تمر الويلات ، وبطش السلطات ، وأن يــدرؤوا عنها الخسائر والمصائب ، وكفى القرية ما تعانيه من ضيق وفقر وأحزان .. وأفاقت النسوة من عويلهن ونواحهن ، وأخذن يتعلقن بأهــداب أولادهن وأزواجهن . ويتوسلن إليهم أن يستسلموا للأوامر حتى لا تصيبهم الرصاصات الطائشة ، ونجاتهم اليوم المؤقتة من الرصاص قد تكتب لهم الحياة ، وقــد يكتب الله لهم السلامة ويعودون من رحلتهم الخطرة .

وبعد ساعات كان الرجال محشورين في غرفات الدوار الداخلية، والتي تشبه إلى حد كبير زنزانات السجون ، وانتقل الإداريون إلى عمل آخر ، ألا وهــو جمع الحمير والأغنام والبهائم ، ووقف الطبيب البيطري المنوط بهــذا العمل في حراسة الشرطة يعاين الحيوانات ، ويستبعد منها الغير صالح ، وما أقله ، ويضم إليــه الصالح ، وهــو الأغلب ، وسارت الحيوانات في مظاهرة بالشرطة ، والغريب أن الناس نظروا إلى تلــك الحيوانات في حسرة وألم ، وبعض الدموع انسكبت من العيون لا من أجــل الخسائر المادية بفقد تلك الحيوانات التي يتقاضون عليها ثمناً تافهاً جداً ، بــل كانت الدموع تعبيراً عن عاطفة عميقة بين الحيوانات وأصحابها .

وهمس « الشيخ عنبة » :

ــ لكم يعز عليّ أن تفارقنا هذه العجماوات لتفقد في عرض الصحراء . . لكم صبرت وقاست ، وقدمت العون للفلاحين .

ثم توقف العمل ساعة ، مدت خلالها الموائد العامرة بأشهى الأطعمة ، وانكب الضابط الإنجليزي والمأمور ، وكذلك بقية الرجال المصاحبين لهم ، على الأكل يلتهمونه بشغف ، ولم يكن يضايق الضابط الإنجليزي إلا خلو الموائد من المشروبات الروحية . . وهمس في أذن المأمور :

ــ أنا مستعد لأن أدفع أي مبلغ لشراء زجاجة من الويسكي .

فابتسم المأمور ابتسامة عريضة وقال :

ــ أيعتقد سيدي أن أمراً كهذا يفوتني ؟

ــ ألديك بعض الخمر ؟

وأجاب المأمور على تساؤله بطريقة عملية ، فقد أشار بيده ، وإذا بالخواجه « يني » ــ صاحب الخمارة الشهيرة ــ يدخل ومعه عدد من الرجال يحملون الزجاجات المملوءة بالخمر والكؤوس الفارغة ، وقال « يني » ، وهو يضع الزجاجات والكؤوس أمام الضابط :

ــ إنها هدية متواضعة لرجال الإمبراطورية العظام . . لنشرب

نحب النصر العظيم الذي سيتحقق في القريب العاجل ، ولنطرب من أجل انتصار العالم الحر .

وجرع الضابط كاسين ، ثم تجشأ ، وأخذ يدور بعينيه هنـــا وهناك ، وقال ونظرات عربيدة تطل من محجريه :

ـ لم يبق إلا النساء الجميلات .

فطأطأ المأمور رأسه دون أن يجيب ، وانسل العمدة خارجـاً كمن وقع في خطر داهم ، وأخذ الضابط يكرر عباراتـه ، فقال المأمور وهو يرتعد فرقاً :

ـ نستطيع أن نفعل أي شيء إلا الاعتداء على الأعراض . . الناس هنـــا فلاحون عرب متدينون . . وهذا الأمر في غاية الحساسية .

فالتفت الضابط إلى « الخواجه يني » قائلاً :

ـ أهذا هو رأيك أنت الآخر ؟

ـ بالطبع . . هـــذه مسألة شائكة . . قد تهدم كل ما بنيتموه .

فمد الضابط يده ، ورفع كأساً آخر إلى شفتيه ، وقد اكفهر وجهه ، وغمغم :

ـ لم يزل الريف المصري متأخراً في أفكاره ، متعفنـــاً في قيمه .

ثم استطرد :

ـ ما هو الشرف ؟ إنه نغمة سخيفة .

قال يني :

ـ قد يفرطون في أرواحهم . . ولا يفرطون مطلقاً في نسائهم .

وبعد فترة من الثرثرة ومناقشة الأفكار الغريبة المنحلة التي يسوقها الضابط الإنجليزي ، تثاءب ثم ألقى برأسه الضخم الأشعث على المائدة .. وقال وهو يغالب النوم :

ـ عليكم أن تجمعوا الحبوب بأقصى سرعة .. لقد تأخرنا .. ومن لا يؤدي ما عليه من التزامات من الفلاحين دقوا عنقه .. أو خذوه إلى السجن .

وهرول الشرطة إلى الأزقة والحواري يتبعهم العمدة وحاملو المكاييل والموازين لجمع الكمية المطلوبة . لم يكونوا يعبؤون بتوسلات النسوة وهن يرددن :

ـ أتأخذون قوت عيالنا . ؟

ـ لم يبق لدينا شيء . . أنتم تطلبون أكثر مما في حوزتنا .

ـ العام طويل .. والجوع كافر .

ـ أخذتم الرجال والحيوانات .. فاتركوا لنا لقمة العيش .

ـ الراحمون يرحمهم الله .

لكن الاستيلاء على الحبــوب لا يتوقف ، والسياط تلهب ظهور الممتنعين ، والذين لا يملكون المطلوب منهم يهرولون إلى جيرانهم يقترضون منهم ، وبعضهم يسرع إلى « الخواجه يني » يقترض منه بالربا الفاحش ، أو يرهن أرضه مصدر رزقه الوحيد .. وعجلة الظلم تدور دون رحمة .. وتسحق في طريقهــا كل من يعترضها ، أو يعجز عن تقديم ما عليه ، ومن لم يستطع الوفاء بالتزاماته عجزاً منه . . ساقوه إلى السجون ، أو ضموه إلى رهط العمال الذاهبين لخدمة جيوش الامبراطورية التي لا تغرب عنهــا الشمس .

* * *

أفاق الضابط الإنجليزي من نومــه .. وصداع شديد يدق بمطارق قاسية في رأسه . . ورفع عينيــه ليرى امرأة متشحة بالسواد تقف أمامه ، وتتكلم بلغة عربية لا يفهمها والدموع تملأ عينيها .. وحاول العمدة وبطانته جرها من أمامه ليقذفوا بها في الشارع .. فأصر الضابط الإنجيزي على سماع شكواها واستنجد بالمأمور كي يقــوم بدور المترجم بينهما .. وفهم الانجليزي أن زوجها اسمه « عبد العزيز شلبي » . . وأنه مظلوم ومتقــدم في السن .. ومن أثرياء البلد وكبرائها . . وقــد أخذوه على أثر

دسيسة دنيئة ضمن الذاهبين من العمال إلى الميدان .. ولم يلفت نظر الضابط الإنجليزي إلا كون « عبد العزيز شلبي » من الأعيان الأثرياء وكان الضابط الإنجليزي صريحاً حين قال:

– وكم يدفع ليفدي نفسه ؟

– كل أملاكه يا سيدي .

– إننا نكتفي بمائتي جنيه .

وانحنت المرأة على يده تقبلها ، بينما قال الضابط مخاطباً المأمور في لهجة آمرة :

– وأين هو الآن ؟

– محجوز في المركز .

– فليطلق سراحه فور أداء الفدية ، ولا تنس أن تسلمها لي .

ثم وقف الضابط .. وخرج إلى ساحة الدار .. ورمى الواقفين بنظرة سريعة .. فلمح شاباً يقف مشدود القامة، مفتول الشاربين.. لا تبدو عليه إثارة من خوف .. فأشار بيده قائلاً :

– خذوا هذا الشاب مكان الشيخ .

وانصب الخبر على العمدة كالصاعقة .. وهتف في ذهول :

– ولكنه ابن أخي .

فلم يفهم الضابط شيئاً .. إلا أن المأمور قال للعمدة :

ـ كلام « السرجنت » ككلام الملوك .. لا يرد .

ووقف العمدة جامداً كتمثال .. بينما أخذ الضابط يقول للمأمور :

ـ لا نريد أن نستعدي الأغنياء وأعيان البلد .. بل يجب أن نحوز رضاهم .. ونكسبهم إلى صفنا .. ومن ثم فلا يصح مطلقاً الزج بهم في مثل تلك المهام .. هذه المهام ليس لها سوى الفلاحين والفقراء .. مفهوم .

قال المأمور :

ـ مفهوم يا افندم .

وجرى أحمد أفندي إلى أمه مهتاجاً وأخذ يصرخ :

ـ لماذا فعلت ذلك يا أمي ؟ لماذا ؟

ـ أيضيرك أن يفلت أبوك من الخطر المحقق .

ـ لا أعني ذلك .. لكن ماذا يقول الناس ؟

ـ يقولون لقد كتب الله النجاة للرجل الذي نحبه .. وعاد إلى القرية ينيرها بسماحته وعطفه وإنسانيته .

فأخذ أحمد يدق رأسه في الحائط ويبكي ويقول :

ـ أنت لا تفهمين .. أنت لا تفهمين .. الألوف يذهبون



الألوف يذهبون ولن يعودوا .. إن المأساة كما هي ..
والحزن سيغلف القرية دائماً .. وسنظل في عذاب !!

ولن يعودوا .. إن المأساة كما هي.. والحزن سيغلف القرية دائماً .. وسنظل في عذاب.. إن واحداً فقط قد نجا .

فربت « الشيخ عنبة » على ظهره في حنـــان .. كان يفهم أن « أحمد » قد أصبح ينظر إلى المأساة ككل لا من خلال أبيـه فحسب .. بـــل من خلال الآلاف من المظلومين الذين يقاسون الأهوال .. ويقضون حياتهم في ذل مقيم .. وعذاب دائم .

الفصل الرابع

قضى « الشيخ عنبة » فترة ليست بالقصيرة في الجامع الأزهر أيام أن كان شاباً ، وعاصر جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده ، وشارك في انتفاضة الشعب المصري أيام ثورة عرابي ، وكان يحرص على مجالسة الأفغاني والاستماع إليه ، وتدوين ما يمكن من كلماته .
والحقيقة أن « الشيخ عنبة » عاد إلى القرية بعد تشتيت العرابيين.. ودخول الإنجليز .. وكانت حصيلتـــه من الوعي السياسي أ... مما حصله من العلوم الشرعية ، كانت القضية الوطنيـــة الأذهان . . والأحداث العالمية الكبرى تجذب إليها كل صاحب عقل مستنير . . وكان لا يفتأ يفكر في أمر هؤلاء الإنجليز الذين دخلوا مصر ، بحجة حماية الخديوي من غضبة الشعب ، ومصـــدر عجبه هو أن الإنجليز يحمون فرداً ويدوسون على إرادة أمة بأسرها، هل هذه هي الحرية التي ينادي بهـا الأوروبيون المتمدينون ؟ وتمر الأيام .. وتشتعل نيران الحرب العالميـــة الأولى (١٩١٤) فإذا

بالإنجليز الذين أعلنوا بالأمس أنهم باقون في مصر مؤقتـاً حتى ترسخ أقدام الخديوي ، يعودون ليعلنوا أنهم باقون لحماية مصر من غـدر الترك والألمان .. وحماية تراث الإنسانية من الحريات العامـة والعدالة والإخاء ، وعـدم الاستغلال ، وينتهزون فرصة الحرب فيستبعدون خديوي مصر عباس حلمي الثاني ، ويجودون بالتاج على السلطان حسين كامل .. ثم يفرضون الحماية البريطانية والأحكام العسكرية على مصر . ثم تراقب الصحف وتمنـع الاجتماعـات .. ويكتم كل صوت ينادي بحق مصر . ويستذل الأحرار .. وتعطل الحياه الديمقراطية ويصبح قائد القوات البريطانية أو المندوب السامي هو الحاكم الفعلي في البلاد .. وهكذا اكتسح مصر طوفان المظالم وأصبحت مجرد ضيعة الإنجليز تورد لهم ما يحتاجون إليـه من مال ومؤن .. يأخذونه بثمن بخس أو بلا ثمن .. ويقع العبء الأكبر من هذه التضحيات الفادحة على عاتق الشعب الفقير الكادح .. ومن يفكر في الاعتراض على الإرادة الإنجليزيـة ، فالسياط والسجون والإعدام هي الرد الحاسم .

وكان « الشيخ عنبة » معتل الصحة .. لكنه كان ثاقب النظر .. يقظ الفكر .. يتابع الأحداث بقلب ثائر .. ويصرخ محتجـاً كلما رأى حيفا . أو وقعت عيناه على وضع اجتماعي أو سياسي مقلوب .

وما أكثر ما اصطدم بالشيخ « خلاف عبد المتجلي » عمـدة

القرية .. كان العمدة يؤمن إيماناً راسخاً أن الفقراء خلقوا للعمل والكدح ولخدمة الأغنياء .. وكان يرى أن الفلاح الذي يعترض على أمر السلطات .. أو يحاول العصيان مجرد مارق مجنون لا بد من تأديبه حتى يفيق إلى رشده ، ويلجأ إلى الطريق المرسوم .

العمدة عبد المأمور . . والمأمور عبد المدير . . والمدير عبد السلطان . وهم جميعاً عبيد للسلطة الإنجليزية .. وهي الحاكم الفعلي .. ولهذا رأى العمدة تبعاً لذلك أن أهالي القرية عبيد له .. تسلسل منطقي – منحرف – اقتنع به العمدة .. وسار على منواله .. فلم يكن غريباً أن يفرض الإتاوات على الفلاحين .. ويجمعها لنفسه .. ولم يكن غريباً أن يستغل الأيدي العاملة – الفلاحين والخفراء على حد سواء – لزراعة أرضه وريها وجمع محصولها .

وكان « الشيخ عنبة » يرى في هذه التصرفات انحرافاً خطراً .. واستغلالاً قاسياً لجهد الجماهير ، وإرساء لقواعد الظلم والفساد .. وإهداراً لكل القيم الفاضلة التي أكدها الدين والمثل العليا في كل الأديان والفلسفات .

ولم يكن « الشيخ عنبة » بالرجل الجبان الذي يداري حنقه ، ويستسلم للأمر الواقع . بل كان يحرص دائماً على توجيه سهام نقده إلى العمدة وأحزابه من الموسرين .. ولا يعتلي منبر المسجد إلا ويحدث الفلاحين ، عن الإنسان الحر ، وعن قوله عمر رضي الله عنه

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . ويحدثهم عن صفات المؤمن الحق .. وعن وجوب المساواة والعدالة والمحبة وسيطرتها على علاقات بني البشر .

ولم يزل هذا دأبه . . حتى أدرك العمدة الخطر الكامن في كلماته .. لم يفكر في مدى صحة آرائه بقدر ما كان يفكر في الخسائر التي ستعود عليه من جراء تشرب الفلاحين لهذه المبادىء .. وأخيراً قرر استدعاء « الشيخ عنبة » . . واختلى به وقال :

– أنت تعرف يا شيخ عنبه . . من أنا .

– أعرف أنك خلاف عبد المتجلي رجل مثلنا .

– لكني عمدة البلد

– المنصب تكليف لا تشريف .

فلم يفهم العمدة ماذا قصد ، لهذا قال :

– لا تكلمني بالنحو .. كن واضحاً .

رفع إليه «عنبة» وجهاً صارماً وهتف :

– لست إلهاً يا حضرة العمدة .

– يمكنني الإيذاء والانتقام من أي معارض .

– ولِمَ لا تكون مجلبة للنفع والخير ؟

– لأنك « ياعنبة » تعترض سلطاني .

فرفع « عنبة » سبابته اليمنى إلى أعلى ، وكأنـه واقف فوق منبر وقال :

ـ بالحق .

قال العمدة في ضيق :

ـ وأنا أعرف ما هو الحق .

ـ وأنا أعرفه .

ـ وإذا اختلفنا في تفسيره « يا عنبة » ؟ يجب أن يكون رأيي هو الأرجح .. رأي العمدة فوق كل اعتبار .

فلوح « عنبة » بيده محتجاً وقال :

ـ هذا منطق أعوج .

ـ كيف يا عنبة ؟

ـ إذا اختلفنا احتكمنا إلى كلمات الله .

وخيم الصمت .

وتذكر « عنبة » كلمات خالدة لجمال الدين الأفغاني .

كان قلبه يدق بشدة ، ولحيته ترتعش ، وأخذ يردد :

ـ يقول حبيبي حينما التقى بقيصر روسيا : أعتقـد يا جلالة القيصر . . أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقـاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص .

فصرخ العمدة محتجاً :

ــ حبيبك لا يفهم شيئاً .

قال « عنبة » وقد تبللت أهدابه بالدموع :

ــ أنت لا تعرف حبيبي يا حضرة العمدة .

ــ أعرف أنك صلب الرأي مشاغب .

فلم يعر « عنبة » كلماته التفاتاً ومضى يقول :

ــ حبيبي صوت من عند الله . . كان يجلس في الحلقة وحوله أسيادي وأسيادك ، ويتكلم عن الحرية . . والحب . . والحياة . . كأن نور الله ينطلق مع كلماته الحلوة . . وكانت عيناه تشعان إيماناً عميقاً .. وتملأ نفوسنا بالثقة الرائعة .. كان لا يخاف في الحق لومة لائم .. استقبل النفي والتشريد والاضطهاد بجنان ثابت .. لم يكن يخاف الموت ولا العالم بأمره .. حبيبي عاش فاتحاً قلبه للناس .. وعاش قلقاً على مصير البشر ، وظل يتنقل من مكان إلى مكان داعياً للحق والحرية والكرامة .. بندائه الخالد .. نداء الشرفاء الأحرار في عالم كله فساد وانهيار .. أتقول يا حضرة العمدة أن حبيبي لا يفهم شيئاً ؟ بئس ما قلت أيها الرجل الشرير .

انقلبت سحنة العمدة ، واتقدت عيناه شرراً .. وهب واقفاً وصرخ :

ــ اخرج من هنا .

قال « الشيخ عنبة » في هدوء :

سأخرج .. لكن كلماتي ستظل تطن في أذنيك .. لأنها كلمات حبيبي .. وكلمات حبيبي لم .. ولن يذهب صداها أدراج الرياح .

فصرخ العمدة مرة ثانية :

- اخرج فوراً .

- يؤسفني أن أراك تعادي أهل قريتك .. وتقف في صف أعدائهم .. ولا تفكر إلا في ذاتك .. لماذا لا تحبهم ويحبونك ؟ تأكد أن ما يدره عليك سلوك الخير أضعاف ما يجلبه لك طريق القسوة والتهديد والإيذاء .

وما كان في استطاعة العمدة أن يعترف بالهزيمة .. ويرجع إلى الحق .. فهو - كعمدة - لا بد أن يكون على صواب..وتكون كلمته هي العليا .. ولما أعياه منطقه .. وعجزه عن قهر « الشيخ عنبة » قال :

- كان في إمكاني أن أقذف بك مع جيش العمال الذاهب إلى صحراء سينا . . وعندئذ لا تعود إلى هنا مطلقاً .

فتربع « الشيخ عنبة » وترنم بصوت جريح :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . . صدق الله العظيم .

صاح العمدة :

- كفى .

رفيل عنبة :

ــ ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .

ــ قلت كفى . . كفى .

ــ وإرادة الله فوق كل إرادة . . لقــد حاولت أن ترمي «الشيخ عبد العزيز شلبي» إلى لهيب الصحراء في سينا .. فأنقذه الله وأخذوا ابن أخيك بدلاً منه .. الله كبير .

تراخى العمدة وارتمى فوق مقعده ، وارتجفت شفتاه ، وهمس بصوت واهن ضعيف :

ــ ارحمني يا عنبة .

ــ كيف أرحمك وأنت لا ترحم .. لقد شربوا الخمر في بيتك ، وهو رجس من عمل الشيطان . . ونفذت كل ما طلبته السلطات منك .. ولم تدافع بكلمة واحدة عن أهل بلدك .. وكنت تجري أمام موكب الظالمين كعبد ذليل . حتى تعثرت قدماك،وتمرغت في التراب يا ابن الأكابر .. أجل الأكابر .

قال العمدة وقد انهمرت دموعه :

ــ أرجوك .. اتركني .

ــ لن أتركك حتى تعود إلينا .

ــ وكيف أعود يا عنبة ؟

ــ لتنس ما فات .. ولتغير سلوكك .. اذهب إلى المحزونين في

بيوتهم وقـل لهم كلمة عزاء .. واسهم في مصائبهم .. وقف إلى جوارهم منذ اليوم .. وإذا لزم الأمر فلتضح بمنصبك فهو شيء بسيط .. وعش لهم .. لله .. ما بقي من عمرك .. كن إنساناً يا حضرة العمدة .

وبكى العمدة كما لم يبك طول حياته .

واحتضن « عنبة » بين ذراعيه .

وظلا متشبثين بضع لحظات .

وقال العمدة بنبرات يخالطها البكاء :

ـ فليغفر لنا الله .

قال عنبة :

ـ ورحمته وسعت كل شيء .

الفصل الخامس

حقاً ، قد يولد الإنسان أكثر من مرة ، أو على الأقل هذا هو شعور « عبد العزيز شلبي » حينما أخبروه أنه عائد إلى قريته ، ولن يلحق بجيش العمال، كان المسكين يقاسي قلقاً نفسياً بالغاً وهو يجلس في محبسه منتظراً ساعة الترحيل . . أو ساعة الخلاص . .ظل طوال ليله ونهاره يقرأ القرآن. . ويسبح باسم الله. .ويضرع إليه مخلصاً تائباً أن يخلصه من هذا المأزق الذي أوقعه فيه سوء الطالع . . ولم يكف لسانه عن التوسل والابتهال إلى الله . . كانت فيه طيبة الريفي . . وثقة المؤمن . . فأخذ ينتظر المعجزة التي تطلق سراحه . . واستجاب الله لدعائه وجاءت المعجزة على يد زوجه . وفي الوقت الذي غادر فيه محبسه . . وقعت عيناه على أفواج المقبوض عليهم . . أولئك الذين ساقتهم السلطات من شتى أنحاء المركز من القرى والكفور والعزب . . كان مشهداً يدمي القلوب ، ويبعث على الحسرة والأسى. . وأخذ « عبد العزيز شلبي » يتطلع إلى وجوههم

الشاحبة .. ونظراتهم الزائغة .. وخطواتهم الواهنة . . وموكبهم الحزين . . ونفسه تتمزق ألماً . . وانسابت من أعماقه الشفافـــة الملتاعة ضراعة صامتة : « يا رب . . ارحـم هؤلاء المساكين » ثم أغمض عينيه .. وتسلل جوار سور المبنى الكبير للمركز . . وبينما هو يسير متعثراً كتائه ضل طريقه طويلًا ، جاءته أصوات محزونة يعرفها حق المعرفة :

ـ ياشيخ عبد العزيز . . وصيتك الأولاد .

ـ يا شيخ عبد العزيز . . دعواتك .

ـ يا شيخ عبد العزيز . . قل لهم لا تبكوا من أجلنا .

ـ يا شيخ عبد العزيز . . مع السلامة.

ودارت الأرض بـــالرجل الطليق . . وانسكبت دموعه على الرغم منه .. وأخذ ينظر إليهم عبر سحابة صنعتها دموعه .. كانوا يتحركـون واهني القوى . . يشيـع قافلتهم البائسة لحن جنائزي دام ، ثم رفع إليهم يداً راعشة .. وأخذ يلوح قائلًا :

ـ مع السلامة . . ربنا معكم .

* * *

وبلغ عبد العزيز داره بعد بضع ساعات .. واستقبل زوجـه الباسمة في فتور .. واحتضن وحيده صامتاً .. دون أن يتبادلا كلمة واحدة . . وألقى بنفسه على أريكة خشبية وهو يلهث .. وتمتمت زوجته :

ــ هذا يوم المنى .

فنظر إليها .. وكان في نظراتــــه عتاب .. وعزوف عن كل مظاهر البهجة .. فأدركت أن زوجها لا يستجيب لفرحتها الغامرة .. فغيرت مجرى الحديث وقالت :

ــ لا شك أنك جائع .

قال في جفاف :

ــ ما بي رغبة في الطعام .

وحيرها أمره .. ترى هل أخطأت حينما تقدمت برجائها للضابط الانجليزي ؟ وهل خانها التوفيق عندما حصلت على المبلـغ المطلوب وقدمته فدية لزوجها ؟ ما هذا الذي تراه ؟ كانت تعتقـد أن عودة زوجها أكبر عيد .. وأنها مناسبة من أعظم المناسبات .. بل إنهـا فكرت في إقامة حفل كبير يشترك فيه أصحاب الطبول والمزامير والأصوات الجميلة .. وتمد فيه الموائد للفقراء .. وتقوم الأذكار عند أضرحة الأولياء .. فإذا بها ترى الأمر على غير ما توقعت .. ها هو زوجها صامت حزين .. وكأنه في مأتم .. وها هو ولدهما « أحمد » .. لا يختلف عن أبيه في أساه وصمته .. هي تعلم أن بيوت القرية قـد أصيبت في رجالها ولقمة عيشها ، ولكن ليس معنى ذلك أن يموت الفرح في كل قلب ، وألا يطرب أحد لمناسبة سعيدة كهذه .

وطرق « الشيخ عنبة » الباب .

وافتر ثغره عن ابتسامة شاحبة مدموغة بطابع المجاملة .. وقال :

ـ حمد الله على سلامتك .. إن نجاتك أثلجت قلوب الكثيرين.

قال الشيخ عبد العزيز في فتور :

ـ تفضل .

ـ إن نجاة فرد مثلك يعتبر كسباً للقرية لا شك ..

ـ إن خسائر القرية لا تعوّض .

ـ وماذا نفعل ؟

ـ الصبر يا شيخ « عنبة » .

تنهد « الشيخ عنبة » قائلًا :

ـ إلى متى ؟

ـ إلى أن يشاء الله .

وتدخل « أحمد » قائلًا :

ـ الاستسلام موت .. والصبر في بعض الأحيان ذلة وضعف .

وأخذ « عنبة » يدندن بنبرات مكتئبة منغومة :

ـ ياما صبر أيوب على حكم الزمان !!

وكان مجيء « عنبة » إلى بيت « الشيخ عبد العزيز » بداية تقاطر الأهالي نساء ورجالاً وأطفالاً من كل حدب.. وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى غصت الدار بهم .. وامتلأت الرحبة

الواسعة .. وكذلك المصاطب أمام البيت بالأهالي ، ولم تزد كلمات التحية عن « حمداً لله على سلامتك » ولم يكن رد الشيخ يخرج عن « الله يسلمكم » ومن آن لآخر ينطلق صوت مؤثر يبعث الرجفة في الأجساد والقلوب :

ـ هل رأيتهم يا شيخ عبد العزيز ؟ .. وكيف أحوالهم ؟

وكان السائل يقصد بالطبع أولئك الرجال الذين انتزعوهم من بين ذراعي القرية وقلبها النابض .. وساقوهم إلى بعيد ، وكان هذا التساؤل ينصب على الجميع كصاعقة ، فيستسلمون للصمت والألم والدموع .

وظهر العمدة فجأة ، ووقف بعوده القصير النحيل على عتبة الباب ثم ألقى السلام .. ولم يجمد « عبد العزيز شلبي » في مكانه .. بل هب واقفاً يرد السلام ، ويستقبل العمدة في بيته .. الجميع يعرفون من الذي فعلها وأراد أن يرمي « عبد العزيز » الى بعيد ، والجميع يعرفون أن الله انتقم منه حين نجّاه وأصاب العمدة في ابن أخيه ، والجميع يعرفون أيضاً أن العمدة كانت له اليد الطولى في اختيار الأسماء .. وفرض الإتاوات ، وأنه لم يكن عادلاً حتى في ظلمه .. هم لا يعرفونه منذ أمس فحسب .. بل يعرفونه منذ زمن طويل .. هو عبد المأمور ، وبالتالي عبد لأهوائه ونزواته . ودائماً كان يبرر انحرافه ، ويلتمس له الأسباب .. حتى مل الناس ذلك فأصبحوا لا يسألونه لماذا فعل .. وسادت الجميع موجة من

الدهشة حينما رأوا « عنبة » بالذات يستقبل العمدة بوجه باش .. ويفسح له مكاناً رئيسياً .. ويرحب به في حرارة .. وصاح « عبد العزيز شلبي » وهو يغالب انفعالاته :

ـ قهوة يا حضرة العمدة ؟

وعاد الصمت من جديد وصورة مأتم كبير ترتسم على رؤوس الجالسين .. هي في الحقيقة فرحة بعودة من أتى ، ممزوجة بحزن على من ذهب .. خليط .. كذلك الخليط الذي ينتج عن مزج الملح بالسكر ، فطعمه إذن يثير التقزز والغثيان .

وتوترت الأعصاب حينما فوجئوا بحضرة العمدة يقول :

ـ إخواني .

أعرف أنكم تكرهونني ، وأنا أعذركم في ذلك ، فقد أسأت إليكم كثيراً .. كل بني آدم خطـــاء وأحب الخطائين إلى الله التوابون .. الظـــلم مرض يا إخواني ، كنت تحت تأثير شعور غريب أوغل بي في الإساءة إليكم.. لكن الله قد وهبني الشفاء.. على يدي طبيب ماهر طيب .. هذا الطبيب أنتم تعرفونه « الشيخ عنبة » . (وأشار بيده النحيلة إلى عنبة ، الذي طأطأ رأسه خجلاً وتمتم « العفو » وتطلعت العيون إلى « عنبة ».. إلى أهدابه المسبلة، ورأسه المنكسة ، ولحيته الوقورة المشذبة .. وردائـــه الرخيص النظيف) . واستطرد العمدة قائلاً .. وقد غشيته موجـــة من الانفعال :

ـ أنا منكم وأنتم مني .. كلنا قلب واحد ويد واحدة ، إنني أرى في عيونكم الشك .. تظنون أني أخدعكم كما خـــدعتكم بالأمس .. ولعل حسني النية فيكم .. يتهمون كلماتي ويعتبرونها مجرد مواساة إبان الكارثة التي لحقت بشباب قريتنا وأقواتها.. لا .. أقسم أني صادق في توبتي وندمي على ما فات .. إن مـا حدث لي يعتبر انقلاباً غير متوقع .. أنا نفسي لم أكن أتخيل أن أتغير هـذا التغير الشامل بين عشية وضحاها.. لكن قوة الله فوق كل قدرة.. كل إنسان منا يمر بلحظة نادرة .. لحظة اكتشاف .. يرى في ضوئها حقيقة نفسه . ولعلكم سمعتم « الشيخ عنبة » يردد في خطبه ودروسه بالمسجد الآية الكريمة « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .. » لا أريد أن أقدم الآن الدليـل على ندمي الشديد .. ولكني سأترك هذا الأمر وأدع الأيام القادمة تشهد لي أو عليّ ..

وأفاق النـاس المذهولين على صوت « أحمد أفندي شلبي » يقول :

ـ أول أمس غدرت بأبي .. واليوم ...

لم يتضايق العمدة ، وإنما ابتسم ابتسامة صافية وتمتم :

ـ القاتل يهوي على فريسته في شراسة،ويمزقها شر ممزق.. ثم .. ثم يرتمي فوقها نادماً منتحباً .. ألا يحدث هذا كثيراً ؟

وانبرى « الشيخ عبد العزيز شلبي » قائلًا :

ـ أنا لا أحمل في قلبي غلًا لأحد ، ومـا حدث لي فهو بإرادة الله . . وليس من المكتوب علينـــا هروب . . وإيماني بالله لا يتزعزع ، وما دام الأمر كذلك . . فهأنذا أمد يدي لحضرة العمدة مصافحاً في إخلاص وحب . . معاهـداً إياه على الإخـلاص والصفح . . .

وتبعته عشرات الأيدي مصافحة العمدة . . الأيدي الخشنـة العجفاء التي لا تعرف سوى الصبر والجلد والسلام . كانت النفوس طافحة بالألم . . لكن ما حـــدث من حضرة العمدة قد لامس القلوب المكلومة وكأنه نسمة رقيقة رطبة .

وصاح صوت في ركن من أركان الصالة :

ـ متى يعودون ؟

وقال آخر :

ـ رجالنا الغرباء متى يعودون ؟

وأجاب العمدة إجابة مفحمة حين قال :

ـ عندما يعود ابن أخي .

وكان يقصد من وراء ذلك أن المصاب ـ مصابه ومصابهم ـ عام، وأن القلق على الغائبين يستقر في قلب العمدة وقلوبهم أيضاً . . وأن حزنه عليهم . . ونقمته على رجال السلطة . . لا يشفى بها

إنسان دون إنسان . . وجلس « الشيخ عنبة » يحدثهم عن الجهاد الأكبر – جهاد النفس – ويكلمهم عن الرسول إبان محنته في فجر الدعوة الإسلامية. وما لاقاه هو وأصحابه من نفي وتشريد واضطهاد ويستشهد بالآية الكريمة «ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» ولم ينس في هذا الموقف الهام أن يتذكر حبيبه « جمال الدين الأفغاني » . . فاختتم كلامه قائلاً :

- يقول حبيبي : بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ..

الفصل السادس

حل موسم جني القطن ، وهو موسم الرزق والبهجة بالنسبة للفلاحين ، ففيه تزف العرائس إلى أزواجهن ، ويلبس الأطفال الجديد من الثياب ، ويقبل الفلاحون على شراء اللحم والفاكهة وخاصة البلح والجوافة ، وترد الأموال المقترضة إلى أصحابها ، وتنتعش الحياة الاقتصادية ، وتروج التجارة ، وبالاختصار يجني الفلاح ثمار تعبه وسهره طول العام، ويؤدي إيجار الأرض للمالكين.. فلم يكن غريباً أن يكون موسم جني القطن أسعد الأيام وأكثرها بركة ومتعة .

لكن الموسم هذا العام كان على النقيض من ذلك مدعاة للألم والضيق ، على الرغم من الوفرة النسبية للمحصول . . فمساحة الأرض المنزرعة كانت صغيرة طبقاً للأوامر العسكرية حيث القوات المحاربة في حاجة إلى الحبوب أكثر من حاجتها إلى القطن .. أضف إلى ذلك الهبوط الشنيع في أسعار القطن . . فقد سدت في وجهه

الأسواق العالمية بسبب الحرب .. أو الإنجليز ـ بمعنى أصح ـ هم الذين سدوا في وجهه كل الطرق .. فوضعوا للأسعار حداً أعلى لا تتخطاه ولم يضعوا لها حداً أدنى حتى تهبط كيفما شاؤوا ..فضلًا عن أنهم احتكروا التصدير لمصانعهم وأصبح الثمن التافه الذي لا اعتراض عليه هو الثمن الرسمي .. وهكذا هبط دخل الفلاح من القطن إلى أقل من العشر .. وخسر التسعة أعشار ظلماً وبهتانا ..

وهكذا بقيت العرائس حائرات .

وظل الأطفال دون ثياب جديدة .

وارتفعت أسعار اللحوم لشدة حاجة القوات المحاربة إليها .. وتحوّل موسم الخير والبركات إلى حرمان وفقر وضياع .. كما أفلس عدد ضخم من تجار القطن .. وفقدوا كل ثرواتهم .

وكانت هذه هي الفرصة الذهبية للخواجه « يني » ورفاقه .. كانت « الخمارة » التي يديرها الخواجه تقع في أوسع وأهم شارع من شوارع القرية .. ولم يكن اسم « الخمارة » يعني أنها لا تحوي سوى الخمر والسكارى والعربدة .. بل كانت متجراً كبيراً فيه كل أنواع البقالة .. وفيه قسم خاص للأقمشة وآخر للأخشاب .. وغيرها .. وضحايا الخواجه « يني » في القرية يعدون بالعشرات .. وهم ضحايا تعاطي المسكرات .. وضحايا التعامل بالربا الفاحش .

الآن وقد جاء موسم القطن .. كان على الخواجه أن يفحص أوراقه ويراجع حساباته .. حتى يحصل ماله عند العملاء .. كان

الخواجه سعيداً لأنه واثق تمام الثقة أن أغلبهم سيعجز عن تأدية ما عليه .. وفي هذه الحالة يستطيع أن يملي شروطه .. ويحدد نسبة الربا الجديدة .. أو يستولي على الأرض المنزوعة والعقارات .

والخواجه « يني » رجل قد ناهز الأربعين من عمره .. هادىء الأعصاب لدرجة مثيرة .. باسم دائماً لكنها ابتسامة خبيثة من النوع الذي يبعث على الضيق .. شديد سواد القلب كما يقول الفلاحون .. يشبه إلى حد كبير فص القطن الأبيض بداخله بـــذرة سوداء .. ويعتقد الخواجه أن التجارة لا تعرف الرحمة ولا المجاملات خذ وهات .. هذا هو دستوره .. له مجموعة من الأصدقاء من أعيـــان البلد .. يحترمهم ويبش في وجوههم .. ويظل الود قائماً ما داموا يملكون القرش .. فإذا خلت جيوبهم فـــلا يعرفهم إلا من خلال الطريقة « الحكيمة » التي يتعامل بها مع غيرهم فلا يعطيهم إلا بناء على أوراق مكتوبة .. وبنسبة ربح مركبة محددة .

وللخواجه « يني » وكيل أعمال يشرف على أرضه التي يملكها والتي استولى عليها من الفلاحين بأثمان زهيدة.. في ظروف مريبة.. حقاً إن الطيور على أشكالها تقع .. إذ أن وكيل الخواجه-ويدعى الحاج إبراهيم - يتفق مع رئيسه في كثير من الصفات وأهمها برود الأعصاب وعدم الاعتراف بالرحمة في المعاملات التجارية والمادية.. ولعله هو اليد اليمنى للخواجه .. لأنه من أسرة كبيرة بالقرية ذات بطش ومهابة .

وظل الخواجه يفحص أوراقه .. ثم توقف عند اسم « أبو المعاطي الشافعي » .. هو الصيد الثمين هذا اليوم .. لا بد من استدعائه وقد انتهى جني القطن .

جاء « أبو المعاطي الشافعي » .. رجل يزحف نحو الرابعة والخمسين مكتنز الجسم.. ضاحك دائماً تلمع سن ذهبية في مقدم فمه.. أبيض الوجه مشرب بحمرة واضحة .. يغلب الشعر الأسود شعره الأبيض على فوديه ولحيته .. ويضع على رأسه عمامة لا لعلمه .. وإنما لمكانته الاجتماعية المرموقة .

استقبله الخواجه ، لأول مرة في حياته استقبالاً رسمياً جافاً ، لم يستجب لنكاته ومداعباته ، وقاطعه الخواجه قائلاً :

- يا حبيبي الديون بلغت خمسمائة جنيه.. وقد تم جني القطن.. والعارف لا يعرف يا حبيبي .

فرد « أبو المعاطي » في استهتار :

- المسألة أخويه يا خواجه .

- لا يا حبيبي .. المسألة معـــاملات ..لو كانت أخوية لخرب بيتي .

تضايق « أبو المعاطي » ، واشتد احمرار وجهه وصرخ :

- بيتك ؟ لقد أتيت قريتنا شحاذاً بلا بيت .. كنت تبيع

الخيط والإبر والفلفل الأسود والأمشاط والمناديل للنساء .. ومن أنت أيها النذل حتى تحرص على أخوتك .

قال الخواجه دون أدنى انفعال :

ـ لا يهمني كل ما تقوله .. ولن يغير من الحقيقة في شيء .. لا أطلب منك سوى حقي .. هذا شيء مشروع ، ولا يصح أن يثيرك .. يا .. حبيبي .

قال « أبو المعاطي » وهو يدق المنضدة بقبضته المتشنجة :

ـ مائة تتحول في بحر عامين إلى خمسمائة .

ـ لا داعي للخروج عن الموضوع .. أنا لا أذكر إلا « الكمبيالة » وفيها خمسمائة جنيه .. ولك أن تختار الدفع .. أو بيع جزء من أرضك .. وإلا فالقضاء العادل يفصل بيني وبينك .

وضاقت الدنيا في عيني « أبي المعاطي الشافعي » ، وفار الدم في رأسه ، وتطلع إلى زجاجات الويسكي القائمة التي تتراص على الأرفف العالية ، وتذكر كيف استدرجه الخواجه إلى شرب كأس واحد في البداية كتجربة . إنه لا ينسى أن الكأس الأول الذي قدمه له الخواجه كان مجاناً .. لم يدفع فيه مليماً واحداً .. وها هو اليوم يدفع الثمن أضعافاً مضاعفة .. وبعدها أخذ يتسلى بكأس .. كأس واحدة ، وثمنها بسيط لن يتجاوز بضعة قروش زهيدة .. ثم تحوّل الكأس إلى اثنين .. إلى ثلاثة .. فأتى على

مدخراته . . وبعد ذلك أخذ يقترض من الخواجه . . لم يعد يشتري كأساً . . بل زجاجة كاملة . . يفرح بها فرحة الطفل بلعبة جديدة.. وقد آن وقت الحساب . . وأدرك « أبو المعاطي » أن الشدة ليست في محلها في هذا الوقت .. يجب أن يسترضي الخواجه.. حتى يمهله فترة اخرى .

– آسف يا خواجه .

– تعلمت ألا أحمل حقداً لأحد .

– سلوك طيب منك .

– والمبلغ يا حبيبي؟

– بحق العيش والملح و . . والخمر تمهلني بضعة شهور .

– آسف يا حبيبي .

– والحل ؟

– واحد من ثلاثة . . شرحتها كلها لك .

– أنت رجل منا . . وقدسية الجيرة الطويلة تفرض عليك بعض الواجبات .

– دع هذه الخرافات . . لو استمعت إلى كلامك لأغلقت متجري ولأكلت التراب .

وأصبح جلياً أن الخواجه مصر على موقفه ، وأنه لا فائدة من

التوسلات التي يسوقها « أبو المعاطي » . . الدافع أو المحكمة . .
أو بيع الأرض . . « أبو المعاطي » لا يملك سوى عشرة أفدنة . .
والأرض الآن برخص التراب . . والقطن قليل وبخس الثمن . .
لا بد إذن من حل حاسم . . ولم يطق « أبو المعاطي » البقاء أكثر
من ذلك . . فرأسه يكاد ينفجر . . وعيناه تتوقدان وتطلقان الشرر . .
والزجاجات الماكرة القاتمة اللون . . تقف راسخة ساخرة فوق
الأرفف . . والخواجه يجلس قبالته هادئاً بارداً بوجهه الشمعي الذي
لا يرق ولا يلين . . وصرخ « أبو المعاطي » ، وهو ينتزع نفسه
خارجاً :

ـ أنت مستغل .

قال الخواجه :

ـ مستغل لأني مددت يدي لك بالعون في وقت شدتك ؟

ـ أجل عاونتني بسمومك .

ـ سأعطيك فرصة أسبوعاً . . أسبوعاً واحداً لا غير .

وتمتم « أبو المعاطي » دون أن يسمعه الخواجه :

ـ يكفي أسبوع . . سأجد الحل حتماً ، وفي أقرب فرصة .

*

خرج « أبو المعاطي » ، وعاد الخواجة إلى أوراقه ومستنداته،
ووقعت عينه على الأوراق الخاصة « بأم الخير »، إنها سيدة طيبة، لم



وتمتم أبو المعاطي دون أن يسمعه الخواجـه :
يكفي أسبوع..سأجد الحل حتماً وفي أقرب فرصة!!

تلجأ للخواجه حباً في الخمر ، بل كان ولدها مريضاً بداء الكبد والاستسقاء .. وظل يعالج منه عـاماً ونصف عام دون جدوى .. واقترضت من الخواجه .. لم تستدن منه أكثر من ثلاثين جنيهــاً لكن المتجمد عليهــا الآن يبلـغ التسعين .. وهي لا تملـك إلا فدانين .. وابنهامات .. مات قبل موسم جني القطن بشهر واحد.. والخواجه لا دخل له بالذين يمرضون أو يموتون ، لا يهتم إلا بالأوراق والأرقام التي فيها تاريخ الدفـع . . وجاءت « أم الخير » بعد أن استدعاها الخواجه تبكي بحرقة وتقول :

ـ مات ولدي يا خواجه .

ـ كل من عليها فان يا ست .. ألا يقول قرآنكم ذلك ؟

ـ أطال الله عمرك .

ـ إني في ضائقة والمبلغ مستحق الدفع .

ـ إن محصول نصف فدان من القطن لا يكفي السداد .

ـ وما حيلتي ؟

ـ ألا تصبر ؟

ـ الدفـع .. أو المحكمة .. او بيـع الأرض .. وأنا مستعد أن أشتري الفدانين بمائة جنيه . . سأعطيك عشرة بالإضافة إلى التسعين التي في ذمتك .. هيه ؟ ماذا قلت ؟

ولم تجب بغير الدموع .

قال الخواجه :

ـ الدموع لا تسدد ديونا .. تكلمي

ـ أوامرك يا سيدي .

ـ اتفقنا .. أنت امرأة طيبة .

ثم أخذت تناجي نفسها :

ـ مات ولدي .. ضاعت الأرض .. لماذا أعيش يا رب ؟

وفي لحظات كان « الحاج ابراهيم » قد أعد وثيقة البيع ، وأخرجت « أم الخير » خاتمها ، وسلمته ذاهلة ثم انصرفت بعد لحظات وفي جيبها عشرة جنيهات .

وظل الخواجه طوال اليوم يستدعي عملاءه ويملي إرادته ، ويستولي على ضروريات الحياة من المستدينين ، لا ينبض قلبه بذرة من شفقة ، ولا تستجيب روحه لكلمة ضراعة ، ووكيله « الحاج ابراهيم » يصرخ في الفلاحين ويتوعدهم ، وينتزع منهم التنازلات طوعاً أو كرهاً ، ونسي الناس أو كادوا مأساة الأمس القريب ، وترحيل أبنائهم إلى الديار النائية .. ونسوا حيواناتهم وأقواتهم التي استولت عليها السلطات ، وأخذوا يتحدثون عن الخواجه « يني » وقسوته المفرطة ، واستغلاله المنقطع النظير .

وأخذ « عنبة » يستمع إلى تفاصيل المأساة الجديدة ويتمتم :

طالما حذرتكم .. لكنكم لا تستمعون .. شربتم الخمر ..

واقترضتم بالربا .. وعصيتم الله .. فتكاثرت عليكم النكبات .

فرد أحد الفلاحين :

ـ كنا عبيد الحاجة .. لقد قهرنا الفقر .

ـ لكنكم لم تقاوموا واستسلمتم .. أردتم أن تنقذوا شيئاً ففقدتم كل شيء .

ثم استطرد :

ـ ومع هذا فإني ألتمس لكم بعض المعاذير ، في هذا العصر الذي انتشرت فيه المظالم وساد الاستغلال ، وتحكم فينا أقوام لا خلاق لهم ولا ضمير .. لكن الله كبير .

الفصل السابع

قد يكون من الغريب أن يفكر « أحمد شلبي » في « صابرين » ، ويجد صورتها متسلطة على أفكاره .. في هذه الآونة الأخيرة .. ومصدر الغرابة يكمن في أن أباها هو حضرة العمدة « خلاف عبد المتجلى » ، ومصدر آخر للغرابة هو تلك الأيام العصيبة التي تجتازها القرية ، وتلك الحرب الطاحنة التي لم تشهد البشرية لها مثيلاً منذ فجر التاريخ .. وعلاقة « أحمد وصابرين » علاقة شائكة منذ البداية .. فقد كان هناك عداء تقليدي بين الأسرتين .. يشبه إلى حد كبير ذلك العداء التاريخي بين والدي « روميو وجولييت » .. ثم إن تقاليد القرية وأخلاقياتها تأبى أن تقوم علاقة عاطفية بين فتى وفتاة .. لأن مثل تلك العلاقة على حد تعبير الناس فساد وانحلال ورجس من عمل الشيطان .

ونشوء هذه الصلة لم يكن يوحي بأدنى تقدم .. فقلوب أفراد الأسرتين مشحونة بأحقاد هائلة ضد بعضهم البعض وكان « أحمد »

علماً بين أقرانه فهو أحد ثلاثة شبان يتلقون العلم في المدينة .. ويعرفون اللغة الإنجليزية، ويتحدثون بها في طلاقة ، إذ أن الغالب على التعليم بلغة المحتلين وبإشرافهم .

وكانت « صابرين » هي الأخرى شهيرة بين لداتها ، فهي بنت العمدة أولا ، وتمتاز بجمال رائع ثانياً . . ثم أنها تلقت مبادىء القراءة والكتابة منذ صغرها على يد محصل الضرائب في القرية « لطيف أفندي » وأصبح في مقدرتها أن تقرأ الجرائد والكتب كالمأثورات النبوية ، وقصص الأميرة ذات الهمة والزير سالم وسيف ابن ذي يزن وبعض الصحف والمجلات ، وقد خلقت لها الكتابة والقراءة عالماً جميلًا رائعاً ، وخاصة بعد أن احتجزها أبوها داخل أسوار البيت بعد أن بلغت سن النضج، ولم تعد ترى الناس إلا من خلال قضبان النوافذ والأبواب الشبه مغلقة .

كانت تسمع الكثير عن « أحمد أفندي » وذكائه .. ونجاحه كل عام ، فتلوى شفتيها في اشمئزاز ، وتكيل له ولأبيه الشتائم ، وكانت مع ذلك تحرص على رؤيته عند مروره في الشارع ، فتطيل إليه النظر ثم تعود وتوجه إلى مشيته وحركاته وهندامه وشكله الانتقدات اللاذعة ، وتصفه بثقل الدم والغرور .. أما « أحمد » فقد شعر منذ البداية أن شيئاً ما ينمو ويترعرع في قلبه، شيئاً يتصل بهذه الفتاة العنيدة الجميلة،وعلى الرغم من نقمته على أبيها..واشمئزازه من مسلكه الشائن ، فقد كان لا يستطيع أن يتنكر لتلك المشاعر النبيلة التي تشده إلى الفتاة شداً لا هوادة فيه .

وكتم « أحمد » هواه في قلبه.. ويئس من الوصول إلى هدف محدد بالنسبة « لصابرين » وخاصة عندما نمي إلى سمعه أنها لا تفتأ تعرض به وبأبيه .

وفي الفترة الأخيرة استبد القلق « بصابرين » حتى بدت أغلب وقتها منحرفة المزاج ، سريعة الغضب ، كثيرة الأرق .. كانت تنتهز خطأ غير مقصود من أحد الخفراء أو إحدى الخادمات فتصب جام غضبها على رؤوسهم ، وتطورت سرعة الغضب إلى بكاء في بعض الأحيان .. حتى حارت أمها في أمرها ، وفكرت في الاتصال بأحد « الروحانيين » كي يعمل لها « وصفة » أو يكتب لها رقية تقيها شر العين ، وعبث الشياطين .. لكن مثل هذا العلاج لم يأت بأدنى تحسن .

وكانت تقف متنمرة حتى إذا ورد اسم « عبد العزيز شلبي » أو ابنه على لسان أحد سارعت بكيل التهم والشتائم لهما ولمن يمت إليهما بصلة ، حتى تحاشوا ذكر اسميهما أمامها ، لكنها تذكرهما من تلقاء نفسها ، وتشفي أحقاد قلبها بكلمات قاسية .. وحينما تم الصلح بين الأسرتين على يد « الشيخ عنبة » ارتاح الجميع ، واعتبروا ذلك بداية عهد جديد للحب والتصافي ، والتفرغ لما هو أهم من شؤون الحياة ومشاكلها التي لا تنتهي .. إلا « صابرين ».. فقد ثارت وفارت واحتجت على هذا الصلح، واعتبرته حطاً لكرامة الأسرة وعاراً يلحق بها أبد الآبدين .

واقتربت زوجة العمدة من ابنتها قائلة :

ـ ماذا تريدين ؟ جنازة تشبعين فيها لطماً .. أليس كذلك ؟.. من أنت حتى تعترضي على صلح أبيك مع عبد العزيز شلبي ؟.. إنه لسوء أدب ، وعهر وفجور أن تتدخل الفتيات فيما لا يعنيهن .

قالت « صابرين » في حدة :

ـ وماذا يقول الناس عنا ؟

ـ يقولون أهل خير . . أحلوا الوئام والتصافي مكان العداوة والأحقاد .

وأخذت « صابرين » تبكي بحرارة ، وأمها تنظر إليها في استغراب .. لشد ما يحيرها أمر فتاتها البلهاء .. ومع أن أمها كانت حانقة عليها، منتقدة سلوكها ، إلا أنها رقت لدموع فتاتها، وأخذتها إلى صدرها وجعلت تربت على صدرها في حنان وتقول :

ـ ماله عبد العزيز شلبي ؟.. رجل طيب ؟ ومن أصل عريق .. وابنه أحمد أفندي ، زين شباب البلد ، وغداً يصير مهندساً قد الدنيا .. آه .. لكم أتمنى أن يكون هذا الصلح فاتحة خير ، وأن تكوني من نصيبه .

فرفعت « صابرين » وجهها مشدوهة ، وقد توقف انسكاب دموعها :

ـ من ؟

قالت أمها في سخرية :

ـ أحمد أفندي .. آه لو تحقق المنى ويخطبك من أبيك .

وأردفت « صابرين » قائلة :

ـ أهذا يرضيك ؟

ـ ويرضيك أنت الأخرى يا نور عيني

ـ مستحيل يا أمي .

تنهدت الأم .. واتسعت ابتسامتها .. وأشرق وجهها بالسعادة وقالت :

ـ كنت فتاة في مثل سنك .. ولم أكن أعرف ما أريد على وجه اليقين .. فأراني أحياناً أسخر من الذي أحترمه .. وأبدي الحقد على من أحبه .. إنها مشاعر متضاربة يا حبيبتي .. لأننا نحاول أن نهرب من الحقيقة .. آه .. ما كان ألذها من أيام .

واستمعت « صابرين » إلى أمها باهتمام بالغ .. وجفت دموعها تماماً .. وبدت اللهفة في عينيها .. وعلى وجهها .. وكانت أمها تلحظها من طرف خفي .. متظاهرة بأنها لا ترى شيئاً .. وأخيراً قالت صابرين :

ـ لكنك تعلمين أنني مخطوبة لإبن خالي منذ ولادتي .

ـ ابن خالك شاب دمث الخلق.. وتاجر ناجح .. ويملك عشرين

فداناً .. لكن لا وجه للمقارنة بينه وبين أحمد أفندي.. ومع ذلك فكل شيء نصيب .

قالت « صابرين » في قلق :

ـ تعنين أن ابن خالتي يمتاز على .. أحمد أفندي ؟

ـ أعني العكس .

ـ وما رأيك أنت في هذا الأمر ؟ أيها تفضلين ؟

وانفجرت أمها ضاحكة ، وأدركت « صابرين » أنها قد تورطت في الكشف عن حقيقة مشاعرها ، وميلها إلى « أحمد » ، فقالت مستدركة :

ـ لا أقصد شيئاً على وجه اليقين .. لكنها مجرد ثرثرة نسلي بها الوقت ليس إلا .

قالت أمها غامزة :

ـ منذ لحظات كان مجرد ذكر اسم « أحمد أفندي » يثيرك ويجعلك تقذفين بطوفان من الشتائم ، والآن تستمعين إلى الحديث في هدوء .. أعني في شغف ولذة .

وطأطأت « صابرين » رأسها في خجل وتمتمت :

ـ أمي ...

ـ أنا أفهمك يا بنت .

ـ أوه .. أمي .

ـ على العموم لا تفكري في هذا الأمر الآن لأنــه سابق لأوانه ، وكما قلت لك كل شيء نصيب .

* * *

لم تنم « صابرين » ليلتها ، فقد باتت تفكر في أمـر واحد ، لم تكن شتائمها إلا تعبيراً عكسياً عن حبها العميق له، وأخذت تستعيد كلمات أمهـا كلمة كلمة ، وتقف عند جملتها عن « أحمـد » زين شباب البلد ، وتهيم في عـالم وردي مفروش بريش النعام والزهـور العطرة الأريج ، وتتخيل « أحمد » إلى جوارها ببسمته الحلوة ، وسمرته الفاتنة ، وعوده المتسق بين الطـــول والقصر ، وشعره الأسود المنسق . وكلماته الرقيقة الجذابة ، ثم تفيق من أحلامهـا وتجري إلى النافذة لعلها تراه .. لكن كيف تراه في هـذا الوقت المتأخر من الليل ، والقرية كلها نائمة ، ولا أحد يدب على الأرض، ثم تعود إلى وسادتها وتدس رأسها الملتهب تحتها لتنام دون جدوى .

* * *

وما كان في مقدور « أحمد شلبي » أن يتجاهل ما ينبض بـه قلبه من عاطفه جياشة ، ولا بعقل أن يفاتح أمـــه أو أباه في أمر كهذا ، ولم يبق أمامه سوى « الشيخ عنبة » ، هـذا الرجل الذي يعيش بهيكـــل شيخ مسن ، وقلب شاب فتى ، ويناقش مختلف

الأمور بروح طيبة ، ويطرب لحرية الرأي ، ويستطيع أن يدير دفة الحديث بلباقة مع الشيخ والشاب والطفل والمرأة بذكاء وحيوية .

قال « أحمد » متلعثماً :

ـ ما رأيك في الزواج ؟

ـ سنة الله في الأرض .

ـ و ...

فقاطعه الشيخ عنبة قائلاً :

ـ لندخل في الموضوع مباشرة ، ولنتكلم بصراحة .

فاندفع أحمد قائلاً :

ـ أردت أن أستطلع رأيك في صابرين .

قال الشيخ عنبة :

ـ الصابرين على خير .

ـ ماذا تعني . ؟

ـ أعني أنه أمر سابق لأوانه، وتفكيرك الآن يجب أن ينحصر في الدراسة ، وفي مستقبلك .

ـ لكنها جزء من مستقبلي .

ـ لم تزل صغير السن مثلها ، وأمامك مرحلة هامة في الدراسة ،

لكي تبني حياتك الزوجية ، يجب أن تقيمها على دعائم راسخة .. فالاجتهاد أولاً .. والزواج ثانياً .

قال أحمد في ضيق :

ـ وإذا تقدم آخر في هذه الأثناء واحتجزها لنفسه ؟

ـ إذا كانت تحبك فستنتظرك .

ـ الأمر بيد أبيها .

ـ أستغفر الله ..إنه بيد بارىء الأرض والسماء .. وعلى العموم دع هذا الأمر الآن .

وسكت « أحمد » على مضض ، إنه يحترم رأي « الشيخ عنبة » ويجله ، ولا يشك في إخلاصه أدنى شك ، لكن إجابة الشيخ لم تشف نفسه ، أو تبرد جمرة هواه . . إن اللهفة التي تستولي عليه ، والشوق العارم الذي يملأ قلبه ، لا يدع له فرصة للتروي والصبر . . لكن ما الحيلة ؟ هو مضطر لأن يصبر .

الفصل الثامن

لم يكن الناس قادرين على أن يصدقوا ما يسمعونه، وحين رأوه بأعينهم .. ولم يعد هناك ادنى شك في حدوثه ، تمتموا في حسرة قائلين : إما أننا في حلم رهيب غريب ، وإما أن هذا الزمن زمن الشيطان والخسران المبين ، فكيف يصدقون أن « أبا المعاطي الشافعي » الرجل الوجيه، صاحب العمامة ، والذي يفض منازعات الناس ، ويحكم بينهم في بعض الأحيان مثلما يفعل العمدة والحاج أحمد شلبي وغيرهم من أهل الكلمة المسموعة . كيف يصدق الناس أن « أبا المعاطي » بلحمه ودمه كان يرتكب جريمة قتل ؟ كان يريد أن يقضي على الخواجة « يني » ويمزج دمه بتراب الأرض ، وقال قائل : إن الخمر فعلت فعلها في عقل الرجل ، وانعكست على سلوكه ، فلم يعد يعرف الخطأ من الصواب ، ولم يستطع أن يفرق بين ما يرضي الله ويسخطه . . ومن قائل إن الحرب قد أفسدت الذمم .. وأنقصت من وازع الدين في النفوس .. فانطلق الناس كالوحوش في الغابة يحلم كل واحد منهم أن يجد لنفسه فريسة،

أما الحقيقة التي سرعان ما عرفها الجميع هي ذلك الدين الكبير الذي التزم « أبو المعاطي الشافعي » بأدائه للخواجه ، وإلا فالمحكمة أو انتزاع ملكية أرضه .. كان الخواجه قد أمهل « أبا المعاطي » أسبوعاً واحداً لا غير .. وعاد « أبو المعاطي » إلى بيته محزوناً مهموماً يفكر في أمر نفسه .. كيف يدفع الخمسمائة جنيه .. ولم يكن هناك وسيلة سوى أن يتنازل عن ملكية أرضه .. لأنها تكفي بالكاد لوفاء دينه .. لكن كيف يتحول هكذا دفعة واحدة .. من رجل غني مرموق إلى رجل فقير ؟ ومن أين له أن يأكل ويلبس ويطعم أولاده ويكسوهم؟ وهل يأتي في آخر أيامه.. ويمد يده إلى الناس طالباً الإحسان .. هو الذي طالما تصدق على الفقراء والمساكين.. وفتح بيته لعابري السبيل وأغدق على المحتاجين في المواسم والأعياد ؟ .. كانت هذه الحقيقة المرة تثير «أبا المعاطي» وتحزنه ، ويحزنه أكثر بناته الثلاث اللاتي أصبحن في سن الزواج.. فمن يتقدم لخطبتهن بعد أن تحل كارثة الفقر . ويصبح رجلا خاوي الوفاض ؟ وكاد « أبو المعاطي » يفقد عقله .. وهو يكتشف تلك الحقائق المذهلة.. وثارت ثائرته حينما تذكر الكأس الأولى التي قدمها له « الخواجه يني » .. كانت بلا ثمن .. هدية متواضعة كما زعم .. حقاً .. الخواجه هو السبب في انحرافه وإدمانه للخمر .. والخواجه هو الذي أغواه .. وأوقعه في كمين الربا الفاحش .. وخدعه برقته وابتسامته .. وملأه غروراً وهو يطري رجولته

وشهامته و كرمه .. ثم تجهم دفعة واحدة ، حينما تـأزم الموقف .. وشح المال في يده .

ولهذا قرر « أبو المعاطي » أن يسفح دم الخواجه .. وخيل إليه أنه عندما يقضي على الخواجه ينتهي أمر الدين .. بـــل سوّلت له نفسه أن قتل الخواجه خدمة عامة .. لأنــه سيخلص الكثيرين من المدنيين .. وتبقى الأرض لأصحابها ، ولا يحرم النـــاس .. من مصادر رزقهم .. و كان « أبو المعاطي » يرى أن الخواجه يدفـع خمسة وعشرين .. ويتقاضى في نهاية المدة مائة .. أربعة أمثال مـا دفع .. وفي ذلك ظلم فاحش .. واستغلال مبين .. ولهذا اعتقـد «أبو المعاطي » أن القضاء على « الخواجه » قضاء على الاستغلال وتحرير لمئات من الفلاحين من الظلم والإرهاق .. وأخـذ « أبو المعاطي » يفكر ويدبر .. ولم يستطـع في النهاية أن يستدرج الخواجـه إلى مكان بعيد .. لأنه نادراً ما يغادر الخمارة .. وإذا غادرهـــا فإن ذلك يكون في حراسة خفرائه الخصوصيين .. الذين يشرفون على الأرض وإيجاراتها ومحاصيلها .. ويكونونـ على أهبـة الاستعداد لحمايته .. ثم إنـ « الحاج ابراهيم » و كيل أعماله ملازم للخواجه كظله .. ويعتبر أن في حماية الخواجه حماية لمصـدر من مصادر رزقه .. ووفاء للرجل الذي كان سبباً في نمو ثروتـه .. وانتعاش أسرته كلها من الناحية المادية . . نتيجة لأرض الخواجه التي يزرعونها .

ولم يطـق « أبو المعاطي » صـبراً . . مـاذا بعـد الإفلاس ؟

الفضيحة والعـار . . فما الذي يجعله ينتظر ؟ الموت ولا العار ولهذا أخفى « أبو المعـاطي » خنجره بين طيات ملابسـه . . ومضى في طريقه متظاهراً بالوقار والهيبة .. حتى بلـغ الخمارة . . كان « يني » يجلس على مقعد خيزراني . . وعلى وجهه سيما الانشراح والثقة . . يبتسـم لهـذا . . ويداعب ذاك . . ويشارك المـارين في تعليقـاتهم ونـكاتهم . . لا يستثني من ذلك الأطفال أو الفتيات الصغيرات . . وألقى « أبو المعاطي » التحية .. فرد الخواجه باقتضاب .

ـ أريدك على انفراد .

قالها « أبو المعاطي » مرتجفاً .. فنظر إليه الخواجه قائلًا :

ـ لماذا ؟ أتريد التأجيل أسبوعاً آخر ؟ مستحيل .

أجاب « أبو المعاطي » وهو يكظم غيظه الهائل :

ـ بل جئت لأسوي الحساب .

ـ تسوية نهائية يا حبيبي .

ـ نهائية يا خواجه ..

ـ هذا عين العقل .. ستوقع وثيقة التنازل عن عشرة أفدنة .. أنت تعرف سعر الأرض في هذه الأيام .. ومحصولهـا لا يباع إلا بمبالغ تافهة ، والريالات شحت تماماً .

أخذ « أبو المعاطي » يصر على أسنانه في غيظ ، لكنه تماسك قائلًا :

ـ لندخل أولاً . . هذه الأمور لا تناقش في الشارع كما تعلم يا خواجه ، وأنت سيد العارفين .

ـ بالطبع .. هذه مناسبة طيبة .. وأنت رجل شريف يا أبا المعاطي .. إني متبرع بزجاجة ويسكي .. زجاجة كاملة تشربها اللحظة في نخب صداقتنا الخالدة .

وابتسم « أبو المعاطي » في مرارة قائلاً :

ـ صداقتنا الخالدة ؟ . أنت رجل كريم يا خواجه .. وابن أصل .. أجل .. أنت تملك الكثير .

قال الخواجه متخابثاً :

ـ أنا رجل فقير .

ـ ومئات الأفدنة ؟

ـ وهل سآخذها معي إلى القبر يا حبيبي .

ـ ففيم هذا الحرص كله على توسيع رقعتها ، وعدم التساهل مع المدينين ؟

ـ هذا شيء .. وذاك شيء آخر يا أبا المعاطي .

جلس الرجلان وبينهما زجاجة ويسكي صغيرة .. وكأسان فارغان .. ثم صب الخواجه .. وشربا دون أن يتكلم « أبو المعاطي » كلمة واحدة .. مصمص « أبو المعاطي » بشفتيه .. ثم سدد نظرات نارية الى الخواجه وهتف .

ـ هذه آخر كأس .. وهذا آخر لقاء بيني وبينك .. يا حبيبي .

ـ لا شك أنك تنوي القطيعة ؟

ـ بل أنوي قطع رقبتك .

وفي لمح البصر كان الخنجر يلمع في يد « أبي المعاطي » .. وجمد الخواجه لحظة .. ثم وثب كقط بري عن مكانه .. فوقعت الزجاجة .. وتحطم الكأسان .. وانقض عليه « أبو المعاطي » كثور هائج .. ورفع يمناه ليغرس الخنجر في قلبه .. ولكن الخواجه أخذ يصرخ ويستغيث ويتلوى . فأصاب الخنجر كتفه اليسرى .. وسرعان ما أتى « الحاج إبراهيم » .. وكيل الأعمال مهرولاً .. كما تقاطر عدد من خفراء الخواجه الخصوصيين وبضعة نفر من المارين بالشارع صدفة وقتذاك .. ونظر « أبو المعاطي » إلى نفسه .. كان الخفراء ممسكين بذراعيه ، والخنجر ملقى على الأرض يقطر دماً .. « والحاج إبراهيم » يدفعه إلى الخارج في غلظة .. « والخواجه يني » يقف يكاد الخوف يصرعه .. وثار « أبو المعاطي » محاولاً التخلص ممن أمسكوا به دون جدوى ، ثم بصق في وجه الخواجه في حقد وخيبة أمل صارخاً :

أيها الكلب الحقير .

ـ لكن الخواجه كان قد استعاد رباطة جأشه .. وتمالك أعصابه ، فأخرج منديله ، وأخذ يجفف البصقة ، ثم يتحسس الجرح بكتفه ، وغمغم :

ـ هذا تصرف وحشي .. ما كان يجب أن آمن للفلاحين من أمثالك .. الغدر طبيعتكم .

فلم يزد « أبو المعاطي » على أن كرر ما قال وهو يلهث :

ـ أيها الكلب الحقير .

ـ ستدفع الثمن غالياً .

ـ دائماً تتحدث عن الثمن .. ولا تعرف غير ذلك .. لكن ثق أنك لن تفلت من يدي مهما طال الزمن .

وقال الخواجه :

ـ بالأمس كنت مهدداً بضياع أرضك.. أما اليوم فسيضاف إلى ذلك دخولك السجن .. إنه شروع في قتل .. والقانون هو القانون.

ـ أعرف أن القانون في صفكم دائماً .

وذاع الخبر في كل مكان ، و كثرت التعليقات عليه ، لشد ما شمت مدينو الخواجه فيه ، وشعروا باليأس بعد أن أفلت من الموت بأعجوبة ، وعلقوا على ذلك قائلين « عمر الشقي .. بقي » ، أما « الشيخ عنبة » فقد كان له رأي آخر إذ قال :

ـ العنف في مثل هذه الحالة يعقد الأمور أكثر ، وما كان القتل تحت هذه الظروف وسيلة ناجحة .. الخواجه لن يقتله خنجر ، وإنما نستطيع أن نقضي عليه بوعينا ، وقطعنا دابر استغلاله لنا بمقاطعته وعدم التعامل معه ، ما دام على هذه الصورة من الجشع .

ووقف العمدة كرجل مسؤول موقفاً محايداً ، فاستدعى الشرطة والنيابة ، ولم يتدخل في صالح أحد الطرفين ، وكان هذا تصرفاً رائعاً منه ، فقد كان معروفاً من قبل أنه في صف الخواجه دائماً .. ويداً يبطش بمناوئيه .. وبالذين يماطلون في سداد ما عليهم من ديون .. نظير نسبة معينة يتقاضاها سراً من الخواجه .. أما هذه المرة .. فقد رفض مال الخواجه .. ولم يتحيز لواحد من الطرفين .

وسيق «أبو المعاطي» إلى الحبس التحفظي تحت ذمة التحقيق .. ولم يكن هناك جدوى من الإنكار .. بعد أن شهد الشهود ..وعلى رأسهم « الحاج إبراهيم »..ومع ذلك فإن الخواجه لم يترك الأمور هكذا تمر دون حيلة ماكرة .. فقد أعلن أمام الجميع أنه متنازل عن حقه .. وأنه قد صفح عن « أبي المعاطي » تقديساً لذكرى الصداقة الخالدة والعيش والملح .. لكن الحكومة لا بد أن تأخذ حقها .. وإن اصطلح الطرفان .

الفصل التاسع

كانت الحرب طاحنة قاسية ، تثير في أرجاء الدنيا موجة من الخوف واليأس ، وتشعل في أعماق النفس الإنسانية أنانية وقسوة واستهتاراً ، وفي مثل هذه الظروف تفقد الإنسانية كثيراً من المعاني الخيرة النبيلة، وتضعف آدمية الإنسان ، وتهيء الفرصة للوحش الكامن في أعماقه كي يعربد ويؤذي ، ويعيد شريعة الغاب، وهكذا تكون حرب الأطماع دائماً . ينعكس أثرها السيء على النفوس والضمائر، وتنقل شرورها من دولة إلى أخرى ، ومن فرد، لفرد ، حتى يصطبغ الوجود كله بصبغة شيطانية لا تحمل سوى معاني الدمار والضياع والانهيار الشامل.

لكن المعاني النبيلة لا تموت كلية .. فبذورها كامنة .. لأن الله جلت قدرته .. يأبى أن يموت الأمل في قلب الإنسان، فيوحي إلى بعض الشرفاء من بني الإنسان كي يدعو إلى الحرية والحب والسلام .

كان الظلام يسود كل أرجاء العالم .. لكن شعاع الأمل يضيء من آن لآخر .. ويحيي في النفوس الإيمان والثقة في مستقبل أفضل .. ولم تكن قريتنا الصغيرة الملقاة وسط بساط الحقول الخضراء ، تحت قبة السماء الزرقاء الصافية .. إلا صورة مصغرة للعالم الهائج المضطرب ، كانت تغص بالخلافات الصاخبة ، والمآسي الدامية ، وينتشر فيها المرض والجوع والجهل ، ومع ذلك فقد كان فيها « الشيخ عنبة » المؤمن المكافح الصابر ، وكان فيها « الشيخ عبد العزيز شلبي » الذي كوّن ثروته من الحلال .. ولم يبخل على المستضعفين من المساكين والمحزونين ببره وحنانه ، وكان فيها أحمد ابنه ، يمثل الجيل الجديد في الكفاح وتلقي العلم والوطنية .. واحتواء مشاعر الحب الرقيق، والإحساس بآلام الإنسان المستعبد في قريته .. وكان فيها حضرة العمدة « خلاف عبد المتجلي » الذي خاض تجربة العنف والقسوة والظلم .. ثم تحول بفضل كلمات مخلصة واعية ، إلى رجل صالح يبكي ندماً على ما بدر منه ، ولا يدخر وسعاً في التكفير عن خطئه ، والسهر على خدمة أهله ومواطني قريته .. وكان فيها « عبد الغفار الطبال » ذلك الدرويش الأعرج الذي يتميز بنفس صافية ، وعبادة دائمة .. ولا يتخلف عن أداء أية خدمة تطلب منه . . كان يعيش على الصدقات . . لكنه لم يبخل بلقمة العيش على جائع، وما أكثر الجائعين الذين يخجلون أن يمدوا يدهم طلباً للإحسان وغيرهم كثيرون في قريتنا .

وهكذا لم تفقد قريتنا الأمل . . ولم تعدم شعاع الثقة الذي ينبض في ظلماتها المدلهمة .

ولم يبق على رحيل « أحمد أفندي » إلى القاهرة إلا يومـان أو ثلاثة.. وبعدها يغادر الأرض الحبيبة التي يعشقها.. ويحب أهلها.. إن قريته قطعة منه .. جزء من روحه وكيانه .. وذكرياتـــه كلها .. ولم يكن أحمد يشعر بالاستقرار والأمن كلمـا اقترب موعد الرحيل .. وفي هذه الحالة كان طبيعياً أن يفتكر «صابرين».

لم يعد في مقدوره أن يتجاهلها .. ومستحيل أن تخطـــو هي الخطوة الأولى .. فكان عليه أن يبدأهــــا .. أن يعرف حقيقة مشاعرها .. لعل هناك شيئاً يقف حائلًا دون تحقيق رغبته ..لكن كيف وأسوار بيتهم عالية ، وأبوها لا يتسامح قيد أنملة في التضييق عليها .. وصون حرمتها .. ولم يكن هناك بد من أن يسطر لهـا خطاباً موجزاً .. لا خروج فيه على الآداب .. ولا يتنافى مع ما درج عليه أهل القرية من حشمة ووقار،مع أن مجرد كتابةخطاب- ولو ظاهر البراءة - لفتاة في سن الزواج ، أمر ترفضه تقاليد القرية، وتتنكر له .

* * *

ولا يدري « أحمد » كيف حدثت هذه الزيارة المباغتة ..هل جاءت نتيجة تدبير محكم ، وخاصة أنه سيسافر في الغد . أم أنهـا مجرد صدفة ؟ كل ما أشيـع بخصوص هذه الزيارة .. هي أنهـــا لتوثيق عرى المودة والألفة بين الأسرتين .. أسرة العمدة ، وأسرة « شلبي » بعد قطيعة طويلة .. وكانت هــــذه الزيارة قاصرة على

الحريم وحدهن . لشد ما طربت « صابرين » وهي ترتدي أفخر ثيابها الحريرية وتتلفع بشالها الوردي .. وتنسق خصلات شعرها، وتقف أمام المرآة .. وتلف وتدور .. ناظرة إلى هندامهـا ، وملامحها وعودها الملفوف ، وصدرها الناهد ، ولم يخف على أمها أن صابرين اليوم غيرها بالأمس .. أهذه هي التي كانت تكيل التهم والشتائم لآل « شلبي » ؟ إنها تكاد تجن فرحاً لمجرد الذهاب في زيارة عابرة إلى بيت شلبي .

وأخذت « صابرين » تقول وهي تروح وتجيء في الردهـة الواسعة :

ـ حقاً .. إن الصلح خير يا أمي .

قالت أمها متخابثة :

ـ ربنا يرزقك بابن الحلال يا ابنتي .

ـ أوه .. دائماً تتناولين كلماتي بالتأويـل والتحريف . أنت تعلمين أننا لا نغادر بيتنا إلا لماماً .. أبي أطال الله عمره أقام من بيتنا سجناً لنا .

قالت أمها متمثلة بالحكمة الشعبية :

ـ من خرج من داره .. قل مقداره .

ـ أما أنا يا أمي فأعتقد أن من خرج من داره في فترات قليلة .. ينعم بالهواء الجميل وتغيير المناظر ، والترويح عن النفس .

ـ أهل الحسب والنسب « يا صابرين » لا يصح أن يغادروا منازلهم .

ـ لماذا ؟

ـ قد جرى العرف بذلك .

ـ المهم أننا سنخرج الليلة برغم أنف العرف .

ـ سنخرج « يا صابرين » تحت جنح الظلام سراً .. ولن يرانا أحد .

كان « أحمد » يعلم بقدمهم منذ الصباح ، وحمد الله كثيراً إذ كتب له أن يرى « صابرين » الليلة قبيل سفره ، ولعله يتزود منها ببعض الكلمات أو النظرات العابرة ، هذه النظرات المرتقبة تساوي عنده ألف لقاء إنها أشهى من مئات القبل .. وتمادى « أحمد » في أحلامه ففكر في تقديم هدية لها ، ولم يقع في حيرة ، فهو يعلم جيداً أنها تحب قراءة القصص الطويلة ، وكان لديه نسخة من كتاب « حديث عيسى بن هشام » القصة الطويلة البليغة التي كتبها المويلحي .. ولم يكد يبلغ هذا الحد من التفكير حتى امتلأت نفسه سعادة وأملا ، وعاد إلى أوراقه يكتب لها خطاباً يضعه داخل الكتاب ، ولكن ماذا يكتب لها ؟ ها هي الحيرة تأخذ بتلابيبه من جديد ، لأنه لم يجرب من قبل هذا النوع من الخطابات ، لقد عاش طول حياته الدراسية في الابتدائي والثانوي لا يعرف شيئاً غير الكتاب ، لم يجرؤ مرة واحدة على محادثة أنثى ناضجة محادثة

عاطفية . لكن الوقت ضيق وعليـــه أن يكتب أي كلام وإلا ضاعت الفرصة .. إنه مسافر غداً .. والسفر دائماً يحوي معـــاني الغربة والرحيل .. وتسيل الدموع من عينيه ، لا بد أن يكتب.. وليكن محافظاً مؤدباً في اختيار الكلمات التي يسطرها قلمـــه المرتعش :

« عزيزتي صابرين :

لا أعلم هل ستسعدين بهذه الكلمات أم لا .. لكـــن الشيء الأكيد هو أني أكتبها بروحي وقلبي ، لأني مؤمن أشد الإيمان أن أحلى لحظات عمري ، هي تلك اللحظات التي سنلتقي فيهـــا تحت سقف بيت الزوجية .

عزيزتي صابرين :

في قلبي كلمات كثيرة لا أستطيـع أن أخطها على الورق ، فالكلمات ــ في أغلب الأحايين ــ تعجز عن التعبير الصـادق عن أشواق روحي ، وأمنيات حياتي ..

عزيزتي :

منذ سنوات ، وأنا أعتقد أن الله قـــد خلقك لي ، ولم يزعزع إيماني قط ما كان يحدث بين أسرتينا ، من خلافات متوالية ، وقلبي لم يتنكر يوماً للمشاعر النبيلة التي أكنها لك .

عزيزتي :

سأسافر غداً .. وسيبقى قلبي هنا .. وسأظل أحلم بيوم العودة إلى قريتنا الحبيبة الغالية « شرشابه » .. وها أنذا أكتب إليك معاهداً على الوفاء الأبدي ، حتى أنتهي من دراستي ، ويتم زواجنا حسب سنّة الله ورسوله .

عزيزتي صابرين :

لم يبق إلا كلمة منك ، تعبر عما يكنه قلبك نحوي .. إنه لأمر هام ، وسأنتظر كلماتك على أحر من الجمر ، ويمكنك الكتابة إليّ ، على عنوان بمدرسة المهند سخانة بالقاهرة .

ملحوظة :

لم أجد ما أقدمه لك تعبيراً عما تحمله روحي من تقدير واحترام سوى هذا الكتاب القيم ، المليء بالعظات والعبر ، كتاب «حديث عيسى بن هشام » .

وسلام الله عليك ورحمته وبركاته .

المخلص

أحمد شلبي

* * *

مر وقت الزيارة على « صابرين » « وأحمد » كالحلم الجميل . لم

يكن يرى في الحاضرات سواهـا ، ولم تكن ترى سواه ، كانت تغمض عينيها ، أو تحني رأسها ، لكن صورته لا تغادر مخيلتها ، وكان « أحمد » يخرج إلى الردهة كلما اشتد حرجه ، وورّد الخجل وجنتيه ، فيقضي بضع دقائق في الخارج ، ولكنه لا يرى في ضوء القمر سواها ، وقامت زوجة العمدة ـ تحت إلحاح أم أحمد ـ لترى الدولاب الجديد في الحجرة المجاورة،وتلكأت « صابرين » ، ووقف « احمد » عاجزاً لا يستطيـع أن يتقدم خطوة ، الكتاب في يده ، ورمته « صابرين » بنظرة عابرة ، فاستجمع شجاعته ، واقترب منها ماداً يده بالكتاب قائلًا في تلعثم :

ـ نورت بيتنا .

ـ بوجودك يا مي أحمد .

ـ هدية متواضعة . . بداخلها خطاب .

وكم كان سروره حينما رآها تمد يدها وتقول :

ـ مقبولة من يدك الحلوة .

ـ وأنا . . وأنا . . أعني . . أنني مسافر غداً .

شحب وجهها ، وخيل إليه أنه يرى الدموع تلمع في عينيها ، حاول أن يتكلم فلم يستطـع ، لكن هذا المشهد القصير . . وتلك الكلمات القليلة كشفت له عن كل شيء .

وهمست صابرين :

ـ مع السلامة .. لا تنس .. أمي قادمة .

وأدار وجهه ، ومضى بعيداً .. كان العرق الغزير يسيل فوق وجهه وعنقه ، وكان قلبه يدق في عنف ، ولكن السعادة تملأ قلبه ، وكل أقطار الدنيا من حوله .

وشعر براحة كبرى ، وهو يأوي إلى فراشه ، وكأنه أتى عملاً خطيراً شاقاً .

أما « صابرين » فقد بقيت طول الليل تقرأ الخطاب.. الخطاب القصير الطويل .

كان خطاب « أحمد » أول نغمة قدسية تتسلل إلى روحها العذراء .. وأول أغنية حانية تغلغلت في أعماقها البكر.. وشعرت عند ذاك أنها تعيش وتنمو .. وأن الدنيا كلها طوع بنانها ، وأن العالم الضيق الذي فرض عليها أبوها أن تعيش فيه أصبح عالماً فسيحاً مليئاً بكل ألوان البهجة والحرية الرخاء .

وقبلت الخطاب .

وأغمضت عينيها على حلم شائق جميل .

الفصل العاشر

وفي قريتنا رجل غريب الأطوار ، قلما يجهله أحد ، اسمه على كل لسان ، قصير ماكر ، له عينا صقر ، وخفة ثعلب ، وبطش نمر ، ونعومة ثعبان ، يدعى « خفاجة ». في ظاهرة فلاح كآلاف الفلاحين الذين يذهبون إلى حقولهم مع مطلع الشمس ، ويعودون إلى دورهم عند مغربها ، له نظرات لا يستطيع أحد أن يواجهها ، ومع ذلك فهو يبتسم دائماً ، يصفه الشيخ « عنبة » بقوله : « شيطان مريد ، ذو دهاء إنجليزي » . الجميع يعرفون أنه قاتل محترف ، يستغله المتخاصمون في القضاء على بعضهم البعض ، ومن يدفع أكثر ينال رضاه ، تدبيره محكم غاية الإحكام .. العمدة كان مضطراً دائماً لأن يصادقه والأهالي يبتعدون عنه إتقاء لأذاه ، وتجنباً لغدره، وإذا طلب من أحد مبلغاً من المال لا بد من دفعه ، يستطيع

الفلاحون أن يثوروا أو يتمردوا في وجه العمدة، ويمتنعوا عن دفع ما يفرضه عليهم من أتاوات جائرة ، أما « خفاجة » فمستحيل أن يرفض له أحد طلباً ، وهو بدوره ذو خبرة وذكاء ، لا يطلب إلا من القادر ، ولا يتصدى إلا للأقوياء في أغلب الأحيان .

فكر « الخواجه » يني » في وضعه الجديد بعد حادث الاعتداء عليه ، والقبض على « أبي المعاطي » ولم يستطيع أن يبعد عن نفسه نوازع الخوف ، إن ضحاياه كثيرون ، ولا بد أن هناك كثيرين مثل « أبي المعاطي » يتمنون قطع رقبته ، فما معنى ذلك ؟ .. هل يستسلم « الخواجه » ويقدم رقبته للأعداء ؟ .. هل يترك البلد ويهجرها إلى المدينة،تاركاً تصريف الأمور لوكيله « الحاج إبراهيم » ثم يناقشه الحساب من آن لآخر ، ويستلم الإيراد أولاً بأول ؟ أم ماذا يفعل ؟ العمدة لم يعد حليفاً مخلصاً كالأمس ، والشيخ «عنبة» يمشي بين الفلاحين ، ناشراً بينهم الوعي ، محذراً إياهم من التعامل مع الخواجه ، و« عبد العزيز شلبي » رجل مثالي أكثر من اللازم ، ولا يعقل أن يضع يده في يد متعامل بالربا الفاحش .. حتى « عبد الغفار الطبال » ذلك الأعرج المخبول يرفض الصدقة التي يقدمها له الخواجه ، لأنها من مال حرام كما يقولون . وأغلب الظن أن أهل القرية شمتوا فيه يوم أن حاول « أبو المعاطي » قتله ، وعضوا على شفاههم غيظاً لنجاته، فالخواجه يعرف أن الناس يكروهونه لأسباب يعرفها أكثر من غيره ، حتى وكيله « الحاج إبراهيم » ليس

مؤتمناً ، إنه يسرق منه ، ويغش في الحساب ، ولو وجد الفرصة سانحة لاقتناصه لاقتنصه.. لكن الحماية الإنجليزية مفروضة على مصر كلها ، وحماية الأقليات ، تلك القضية الزائفة التي لا أساس لها ، واجب مفروض في عنق قوات الاحتلال .. ومع ذلك فإن الخواجه في حاجة إلى رجل قوي .. أقوى رجل .. ولهذا اختار « خفاجة » .. كان الخواجه يخافه وكان في إمكان الخواجه أن يشي به إلى المسؤولين فيصدر أمر باعتقاله ، لكن « خفاجة » كان أذكى منه ، إذ لم يحاول التعرض للخواجه .. كان يفكر ألف مرة قبل أن يخطو خطواته الحاسمة ، ولهذا رأى من الحكمة أن يدع الخواجه وشأنه...وذات مساء استدعى الخواجه « خفاجة » ، ودخل « خفاجة » وحيداً قصيراً باسماً ، وسحب مقعداً وجلس قبالته ، وانتظره الخواجه أن يتكلم ، أو أن يستفسر عن سبب استدعائه ، لكن حرص « خفاجة » جعله يعتصم بالصمت ، فلم يجد الخواجه بدأ من أن يفتتح الحديث :

ـ هذا لقاء كنت أنتظره من زمن بعيد .

ولما لم يعلق « خفاجة » بشيء استطرد الخواجه :

ـ تعلم أني استوليت على فدادين أبي المعاطي العشرة ؟

ـ أعلم .

ـ كان الرجل فظاً معي ، وعقر اليد التي قدمت له الإحسان .

فهز « خفاجة » رأسه دون أن يتكلم ، ثم قال الخواجه :

ـ وقد قررت أن تقوم أنت بزراعة هذه الأرض لحسابك .

ـ كيف ؟

ـ سأؤجرها لك .

ـ مهمة شاقة .

ـ لا تفكر في ذلك .. أريد أن أكسب صداقتك كرجل ، ومسألة الإيجار لا تشغل بالك بها فما أسهل أن أتنازل لك عنها .. ألك رغبة في كأس ؟

قال « خفاجة » وهو يسدد نظرات فاحصة إلى الخواجه :

ـ لا أشرب الخمر .. بل أدخن الحشيش .

ـ ومع ذلك فإني أعتقد أنك لن ترفض كأساً واحداً .. إنه تحية لا أقدمها إلا لاصدقائي الأعزاء .

قال « خفاجة » في مكر :

ـ لكنها محرمة شرعاً كما يقول « عنبة » .

وأوشك « الخواجه » أن ينفجر ضاحكاً ، وهل أدعى للضحك

من رجل يقتل النفس الإنسانية دون تحرج ، ويرفض كأساً من الخمر مخافة الله ؟ وأمام إصرار « الخواجه » جرع « خفاجة » كأسين متتالين وبعدها وجد لدى نفسه رغبة ملحة في الكلام ، فأخذ يقول :

– أنت رجل ذكي يا خواجه .. كنت واثقاً أننا سنلتقي يوماً ما .. أنت في حاجة إليّ ، وأنا أيضاً لا يمكنني الاستغناء عنك .. كان لا بد أن نكون أصدقاء .. صداقتنا معناها ألا يتعرض لك أحد بسوء ، ومعناها أن تجمع إيجار الأرض دون أن ينقص مليماً واحداً . أنت رجل غريب . والغربة أخطار ومخاوف .. هيه .. أتفهمني ؟

قال « الخواجه » ضاحكاً :

– ولهذا استدعيتك .

– صفقة رابحة بإذن الله .

– ولا أريد أن تكون صداقتنا سراً منذ الليلة .. لتكن حديث الناس ، وليعرفها كل واحد في القرية .

وملأت الخمر رأس « خفاجة » بالغرور ، وبرقت في عينيه رغبات الشيطان .. وقال وهو يصب لنفسه الكأس الثالثة :

– ومن الذي تريد أن تلقنه الدرس الأول ؟

هتف « الخواجه » بصوت كالفحيح :

– عنبة .. « الشيخ عنبة » .

وتصلبت يد « خفاجة » على الكأس . وظل صامتاً برهة . لكأن ذكر الشيخ قد أطار من رأسه كل أثر للخمر .. ثم قال :

– هذا شيخ مخرف .. بضاعته الكلام .

رد الخواجه محتجاً :

– أنت لا تعرفه .. هذا الرجل داهية .. كلماته أقوى من ألف قنبلة .. يقول للناس لا تتعاملوا مع الخواجه .. يحرضهم على مقاطعتي .. ويقول لهم اذهبوا إلى السجن وفاء لالتزاماتكم المادية .. وبيعوا أغلى ما تملكون . ولا تقترضوا من الخواجه بالربا الفاحش تصور !! هذا العام لم أقرض مالي إلا لعدد ضئيل جداً .. عنبة هو الذي أفسد عليّ الجو .. وعنبة هو الذي أفسد عليّ العمدة .. أراد « أبو المعاطي » أن يقتلني بخنجره .. فعجز .. أما « الشيخ عنبة » فقد قتلني معنوياً ومادياً بكلماته .. إنه رجل خطر .

ثاب « خفاجة » إلى رشده .. وتذكر الشيخ بسمته الهادىء الورع .. ولحيته البيضاء .. وجلسته على المنبر يعظ الناس .. ودوره في إزالة الأحقاد والخصومات .. ووقوفه دائماً إلى جانب المظلومين والمساكين .. فتمتم « خفاجة » في حيرة :

ـ لكنه رجل من رجال الله .

ـ كلنا أبناء الله .

ـ بل عبيده .

ـ أتخاف الله لهذا الحد يا خفاجة ؟

ـ أخافه وإن كنت أعصاه .

ـ وكيف يتفق الخوف والمعصية ؟

ـ لا أعرف .. ولكني أذكر أنني قاسيت كثيراً في طفولتي، وأذكر أن أبي مات بعيداً في أعمال السخرة أيام حفر قناة السويس، وتزوجت أمي من رجل شرس سقاني الهوان . . واشتغلت أجيراً في أحد التفاتيش السلطانية .. وهناك ذقت الكرباج لأول مرة .. كان قاسياً . . ولم أستطع أن أنعم بالراحة إلا بعد أن اكتشفت قوتي ودهائي .. فتعلمت الانتقام .. ومارست القتل .. ثم احترفته . لكني احترفته بشروط .. إن يدي لا تطاوعني حينما أسدد ضربتي إلى قلب رجل شريف « كالشيخ عنبة » . إنه لا يريد شيئاً لنفسه .

ـ لكنك قتلت الكثيرين وتقاضيت الثمن يا خفاجة .

ـ لا أنكر . . ولا أكتمك أني الآن لست في حاجة لأن

أقتـل . . إن الخوف الذي أبذره في قلوب الخلق يكفي وحـده لتحقيق ما أريد . . ولا ألجأ إلى القتل إلا عندما تعجز حيلتي . . إنه آخر شيء أفكر فيه .

وارتسم القلق على وجه « الخواجه » ، وأدرك أنه لم ينجح النجاح الذي توقعه ، فأراد أن يكاشف « خفاجة » بالحقيقة . فقال :

ـ إن أخطر العناصر شأناً هم أولئك الذين تسميهم رجال الله .

واستطاع « خفاجة » أن يقنع الخواجه بأن « عنبة » ليس هو العدو الوحيد له ، وقرر أن البلد كلها تعاديه وأن المهم في الأمر هو ألا يتعرض أحد للخواجه بسوء ، ولا يقصر مدين في تأدية ما عليـه ، ويكفي أن مأساة « أبي المعـاطي » لن تتكرر ، ثم استطرد :

ــ وثق يا خواجه . . إن الناس لن يستغنوا عنك مهما قال عنبة ووعظ . لأن الحاجة إليك أقوى من المبادىء ومن عنبة . . ومن كل الطيبين الشرفاء في العالم أجمع . . فهز « الخواجه » رأسه قائلًا :

ــ هذا كلام رجل خبير .

فابتسم خفاجة وقال :



إن الخوف الذي أبذره في قلوب الخلق يكفي وحده لتحقيق ما أريد !

ـ لولا ذلك الحذر الذي أعتصم به ، لوقعت في يد الشرطة منذ زمن بعيد . . لكن العمدة في جيبي ، والأهالي لايجرؤ واحد منهم على الشهادة ضدي ، ثم إني لا أترك قرينة واحدة تدينني . . وأضرب ضربتي في إحكام . . تحت جنح الظلام . . دون أن يراني أحد .

وامتدت يداهما فوق الزجاجة والكؤوس الفارغة ، وتعاهدا عهداً غريباً في حماية الشيطان .

الفصل الحادي عشر

كل يوم تذكر القرية الغائبين عنها ، أولئك الذين ذهبوا إلى بعيد ، حيث لا يعلم أحد ، ليقوموا بأحط الأعمال في خدمة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس ، وفي كل يوم تأتي أنباء من المدينة تؤكد ما سبق من شائعات ، تلك الشائعات التي تتحدث عما يفعله جنود الإنجليز ومستعمراتهم من أستراليين وإفريقيين وآسيويين . فهم في المدينة يغتصبون النساء ويستولون على البضائع من المتاجر العامة ، ويضربون المواطنين للتسلية أو لأوهى الأسباب ، ويترنحون سكارى في الشوارع ، ينشرون الفساد والانحلال في أرجاء البلاد ، فهم بحق — كما يقول الشيخ عنبة — رسل مجون ودعارة وانحلال ، لا رسل مدنية وتحرير للشعوب المستعبدة ، ولا يأتي يوم إلا ويتساءل الناس : متى يعود الغائبون؟ متى تنتهي هذه الحرب الطاحنة ؟ متى يشرق فجر السلام والحرية والعدالة ؟ فالناس لا يكادون يفرغون لأحزانهم القديمة ، لأن

الكوارث دائمـــاً في الطريق إليهم ، حتى أضحت الكوارث هي الشيء الطبيعي ، وتلقيها أمر لا مفر منه .

والخواجه « يني » لا يفكر في شيء من هذا كـله ، فليس له مغتربون ، ولم يقاس مرارة الظـلم والفقر والخوف الحقيقي ، ولا تحرق النار إلا أنامل القابض عليها، ولقد قرر الخواجه الاستيلاء على محصول القطن الذي جناه كل من استأجر منه أرضـاً ، استولى على القطن كله ليضمن سداد إيجار الأرض ، وتكدس في المخزن الخلفي للخمارة كمية ضخمة من القطن ، وعندما ما وزنه ، وقدر ثمنه حسبما يروق له ، وجد أنه لا يكفي سداداً لحقه الذي يفرضه هــو ، واستشار « خفاجة » فيما يفعل ، بالطبـع كان رأي « خفاجة » أن يطالب « الخواجه » بما تبقى له من حقوق ، فعقد « الخواجـــه » للمستأجرين اجتماعاً عاماً في خمارته وشرح لهم الأمر ،وطالبهم بالعمل على تسديد ما في ذمتهم له فوراً .

فقال أحد الفلاحين :

ـ القطن زهيد السعر هذا العام .

وقال آخر :

ـ والمساحة المنزرعة بسيطة .

وقال ثالث :

ـ وليس لنا دخل سوى ثمن القطن .

قال الخواجه :

– هذا كلام مكرور سخيف.. هذا لا يعني ضياع.. حقي حتى إن تحت يدي المستندات التي تضمن لي الاستيلاء على مستحقاتي .

وكم كانت دهشة « الخواجه » حينما رأى « عنبة » يقف ، فكأنما انشقت عنه الأرض ، أو قذفت به السماء على حين غرة ، وقال عنبة :

تعلم يا خواجه ، أن قيمة الإيجار تعتمد أساساً على ما تغله الأرض ، فإذا ارتفع سعر القطن ارتفع إيجار الأرض ، هذه بديهة يا خواجه .

قال الخواجه محتجاً :

– أنا أرفض أي كلام منك يا شيخ عنبة .

– لماذا ؟

– لأنك لم تستأجر مني أرضاً .. ولم أطالبك بشيء.. والمشكلة القائمة بيني وبين الفلاحين تخصني وتخصهم ولا دخل لأحد فيها .

لكن صوتاً جانبياً هتف:

– لقد وكلنا « الشيخ عنبة » ليتحدث باسمنا .

فنظر « الخواجه » إلى « خفاجة » نظرة ذات معنى وقال :

– وماذا يجدي كلام « الشيخ عنبة » ؟ إن بيني وبينكم عقود

موقعة منكم ، فمن يدفع يفض إشكاله ، ومن لا يدفع فأمامي المحكمة والقانون هو القانون .

وصاح الشيخ عنبة :

ـ إنها عقود باطلة .. فأنت تعلم أنهم وقعوها على بياض ،وأنت الذي حددت سعر الإيجار فيما بعد بالطريقة التي ترضيك .

وانبعث من حشد الفلاحين هدير صاخب ، وصاحوا جميعاً :

ـ أجل .. أنت فعلت ذلك يا خواجه .

التفت «الخواجه» إلى « خفاجة » الصامت الذي يرمي بنظراته هنا وهناك ، ثم عاد يقول :

ـ ليكن .. لكن القانون في صفي.. أنتم تعلمون ذلك جيداً.

وأوشك الجميع أن ينفجروا ضاحكين حينما سمعوا « عبدالغفار الطبال » يقف وسط الحشد ويقول بصوت المنادي على الأشياء المفقودة :

ـ خروف تائه يا اولاد الحلال .

وحلاوته .. ريال ..

لكن خفاجة صرخ فيه صرخة شدت أسماع الشاهدين :

ـ اخرس يا كلب .. يا أعرج .

وتدلت شفة « عبد الغفار » السفلى، واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ـ كانت هذه الأرض أرضنا .. كان جدي يملك أربعين فداناً في « حوض الشياخة » .. هي أرض الخواجه الآن ، لكنها كانت أرضنا .

فلم يطق « خفاجة » صبراً ، أوصلت الحال لأن يقف هـذا الأبله الأعرج المتسول ، ويجرح شعور الخواجه ، وهو مخلوق تافه لا وزن له ، واقترب منـه « خفاجة » مسدداً إليه نظرات الوعيد الحاقدة ، حـاول « عبد الغفار » أن يهرب وأن يجري بعيداً عن نظراته ، لكنه تعثر في الجالسين حوله حتى أمسك ، « خفاجـة » بذراعه ، وجره بعيداً ثم قذف بـه في عرض الشارع ، و « عبد الغفار » يبكي رعباً وهلعاً .. وما أن عاد « خفاجة » إلى مكانه ، حتى سمع « عبد الغفار » يثب ويصيح :

ـ عجل تائه يا أولاد الحلال .

وحلاوته .. ريال .

ورأى « الشيخ عنبة » أن الموقف يحتاج لمزيد من اللباقـة والتروي ، لأن الهجوم والشدة لن يؤديا إلى نتيجة حسنة ، فرفـع صوته قائلًا :

ـ لنناقش الأمر على صعيد آخر . لنفرض أن القانون في صفك،

لكنك ترى أن الفلاحين مساكين .. وهم في أسوأ حال .. القطن كله لا يكفيك سدداً للإيجار .. فماذا يفعلون طوال العام ، وقد استولت السلطة على أقواتهم وبهائمهم ؟ أنت واحد منا يا خواجه ، ومواطن في هذه القرية التي أحبتك ، وأتاحت لك فرصة النمو والثراء ، وعاملتك أشرف معاملة .. أنت إنسان .. والإنسان أخو الإنسان ، يقول حبيبي « جمال الدين » : « إن الاديان الثلاثة كل أساسها واحد » . أساسها الحب والتعاون والصفح .. إنه ليعز عليك — لا شك — أن ترى الفلاحين يأكلون التراب ، ويبيتون على الطوى ، ثم تطلب منهم المزيد .. ثم إنك لن تخسر شيئاً .. سيقل إيرادك بعض الشيء، لكن سيبقى لك دخل كاف.. إننا نناشدك يا حضرة الخواجه أن تكون رحيماً بهؤلاء المساكين.. ونرجو في العام القادم أن تنتهي الحرب ، ويسود السلام ويعوضك الله خيراً .. فماذا قلت ؟.

لم ينبض قلب الخواجه بنبضة حب واحدة ، كلما يتصوّر أن دخله سينقص تزداد النار في قلبه اشتعالاً ، ويغشى على بصره ، فلا يرى الفلاحين الذين أمامه إلا طائفة من اللصوص أو المتآمرين يريدون نهبه واستلاب ما يملك ، ولا يرى في « الشيخ عنبة » إلا زعيماً شرساً لعصابة من الخطرين ، فتمالك الخواجه أعصابه وقال :

— كلامي واضح .. القانون هو القانون .

وجاءهم صوت لدى عتبة باب الخمارة يقول :

– ما هذا الكلام الذي تقوله يا خواجه ؟

ونظر الناس ، فإذا بحضرة العمدة يقبل ، معتمداً على عصاه المعوجة ، ثم استطرد العمدة قائلا :

– إن موقفك هذا يثير العجب.. إن الخسائر التي حلت بالقطر عامة ، وبهذه القرية خاصة ، يجب أن نتحمل أعباءها جميعاً .. لماذا يضحي الفلاحون بأقواتهم وبهائمهم وأبنائهم المغتربين .. وأنت .. أنت .. الرجل المقتدر المالي .. لماذا لا تحتمل التضحية وتسهم فيها بنصيب ؟.

وغمرت الفرحة وجوه الفلاحين ، ولمعت في أعينهم أشعة النصر ، وها هو العمدة ينضم إلى صفوفهم ويقف إلى جوارهم دون خوف ، وصاح « عبد الغفار الطبال » الذي جاء يتتبع العمدة هاتفاً :

– يعيش حضرة العمدة .

يعيش « الشيخ عنبة » .

يسقط الظلم .

وساد الهرج والمرج ، واختلطت صيحات الناس بضحكاتهم ، وتعليقاتهم ، فوضع الخواجه يديه في جيوب سترته ، بعد أن عدل من وضع قبعته على رأسه ، ونظر حتى خفت الضجيج ، وقال :

– إنني لأعجب يا حضرة العمدة يا حامي القانون كيف تدعوني

إلى العبث بالقانون .. إن كلامك هذا معناه تحريض الأهالي ، ودعوتهم إلى العصيان والتمرد .. ولن يكون هذا التصرف إلا وبالاً على القرية بأسرها .. حسبتك تقدم لهم النصح بأن يوفوا بالتزاماتهم التي لا فكاك منها ، فإذا بي أراك تدعوني للتنازل عن حقي ، وتشجع الفلاحين على الفوضى وأكل أموالي بالباطل .

وصمت برهة ثم قال :

ـ انتهى الاجتماع .. فلتنصرفوا الآن .. وسأتخذ كافة الإجراءات القانونية . فلن أسكت عن حقي .. لن أسكت عن حقي ، مهما كان الامر .

وما أن أدار الخواجه ظهره لهم ، حتى قال « عنبة » للجموع :

ـ خير لكم أن تذهبوا إلى السجن من أن تنصاعوا للظلم الذي يتستر في زي القانون كذباً وخداعاً .

كان الناس ينصرفون ، ولا حديث لهم سوى موقف العمدة المشرف، وتعريض مركزه للخطر من أجلهم ، وكان الجميع يثنون على « الشيخ عنبة » والد الجميع ، صاحب العقل الصافي ، والقلب الكبير ، وابتسموا في حب وهم يستعيدون موقف « عبد الغفار الطبال » وتصرفاته ، التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال ، وكان في كلتا الحالتين معبراً تعبيراً صادقاً عما يجيش في صدورهم ، لكنهم تألموا كثيراً وهم يتذكرون « خفاجة » ووقوفه إلى جوار « الخواجه » ، ونظراته المتوعدة لهم ، وانسلاخه عن الإجماع

الشعبي ، واعتبروه بذلك خائناً للقرية التي تضم بيته إلى صدرها .. خائناً للناس الطيبين الذين لم يتعرضوا له يوماً بالأذى .. بل بالغوا في طيبتهم ، وتستروا على جرائمه ، فتمادى في غيه واستبداده .

عندما اختلى الخواجه بخفاجة .. التفت إليه قائلاً :

– ما رأيك ؟

قال خفاجة :

– انتهى الأمر ، ووجدت الحل. إن العمدة يمثل خطراً حقيقاً .. وانضمامه للناس يشد من عضدهم .. ويجعل الغلبة لهم بالحق أو بالباطل ، وفي ظل هذا الالتحام الشعبي يستطيع العمدة أن يفعل أي شيء .. يمكن أن يؤذيك يا خواجه .. ويستطيع أن يقضي عليّ ، ولهذا قررت .

قال « الخواجه » في لهفة :

– ماذا قررت ؟

– سأقتل العمدة .

– وعنبة ؟

– قتل العمدة فيه أكثر من معنى .. إنه القضاء على أكبر رأس .. وفيه تحطيم لوحدة الفلاحين .. وبث الذعر في قلوبهم .. سينكمش « عنبة » من تلقاء نفسه .. وستأخذ مستحقاتك كاملة يا خواجه ..

وأنا ساحيا .. سأبقى خفاجة الذي يهابه الجميع .. ولن يحوجني الأمر بعد دلك إلى الكلام ستكون نظراتي وحدها كفيلة بتحقيق كل ما أرمي إليه .

وصافحه « الخواجه » قائلًا :

ـ هذا عين الصواب .

كان « الشيخ عنبة » يفكر في أمر خفاجة تفكيراً جدياً هذه المرة ، لماذا لا يجرب حظه معه ، ويحاول هدايته .. وتوجيهه إلى الطريق المستقيم ؟ ألا يمكن أن يستجيب لكلمة الحق والضمير ، ويتوب إلى الله كما تاب حضرة العمدة .. ويطلق انحرافه وخطاياه، ويعود إلى أهل قريته ؟

واتخذ « الشيخ عنبه » سمته إلى بيت « خفاجة » في المساء ، ولقيه الرجل مرحباً .. وجلسا يحتسيان أقداح القهوة صامتين .. وأخيراً قال عنبة :

ـ جئت ناصحاً .

ـ مرحباً بك .

ـ أهلك أولى بك .

ـ هذه بديهة .

ـ لكنك تخالف البديهيات يا خفاجة .

— من ؟ أنا ؟

سدد إليه « عنبة » نظرات لا تلين ، وقال في قوة :

— أنت .

— لكنك تظلمني يا « شيخ عنبة » أنا لم أتعرض لك بأذى طول حياتي .. ولك في قلبي منزلة كبرى .

— لقد آذيتني كثيراً يا خفاجة .

— مستحيل .. متى كان ذلك ؟

— إن إيذاء أهل القرية إيذاء لي . . وقتل النفس التي حرّم الله إهانة كبرى لي .. والوقوف إلى جانب « الخواجه » في مظالمه واستغلاله إيذاء لي .. بل لنا جميعاً .. أتنكر ذلك ؟..

— لا أنكر أن ما أفعله شيء يخصني .

— كلا .. إنه ينعكس بالضرر على الجميع .

— وهنا نختلف « يا شيخ عنبة » .. الضرر فعلاً سيقع على الجميع وسيكون سببه أنتم لا أنا ولا « الخواجه » .

— أنت مصر على ما تفعل .

— أجل ومؤمن به .. وهذه مسألة لن يجدي فيها النقاش ولا المواعظ . عش ودع غيرك يعيش يا شيخ عنبة .

قال عنبة :

ـ الشيطان يزوق لك المنى .

ـ بل أنا أخدع الشيطان نفسه .

ـ هذا غرور .

ـ أنت تسبني .

ـ أنا لا أخاف .

ـ لكنك في سن والدي رحمه الله .

ـ إذن فأنت ترفض العودة .

ـ ما زلت بينكم .

ـ أنت تعرف مرمى كلامي يا « خفاجة » .

ـ وأعرف أنه انتهى عصر الملائكة .

ـ وداعاً .

ـ إلى اللقاء يا شيخ .

ـ لا لقاء .. لأني لا أضع يدي في يد من عصى الله .

وانسكبت دمعة على خد « عنبة » ولكن لماذا يحزن ؟ لقد نجح مع العمدة ، وفشل مع خفاجة ، والله وحده قادر على أن يغير الأحوال ، ويهدي إلى الحق ، ولن ينتصر الشر .. وعندما التقى « الشيخ عنبة »بالعمدة « والشيخ عبد العزيز شلبي » قال لهما :

– لقد مات .

فصاحا بصوت واحد :

– من ؟

– خفاجة .

– من قتله ؟

– لم يمت جسمانياً .. لكنه باع نفسه للشيطان .. لقد فقدناه ولن يعود إلينا ، إنه يفلسف انحرافه ، ولعل قلبه قد اسود تماماً حتى لم تعد تنبض فيه بارقة أمل أو خير . « خفاجة » رجل شرير .

قال العمدة يائساً :

– أنا أعرفه . . لن يترك « الخواجه » ينهزم ، ولسوف يفعل شيئاً .. شيئاً خطيراً .

قال عبد العزيز شلبي :

– ما هو .. ؟

– لا أدري . . لكن يجب أن نفتح أعيننا جيداً ، وإلا ضعنا .. ولتحترس لنفسك يا « عنبة » .

فتمتم « عنبة » قائلاً :

– يقول حبيبي : « لا حياة للجسم إلا بالروح .. وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة » . . . خفاجة لم يستجب لكلمة الحق ، ولم ينصع لحكمة الله . . لقد مات قلبه . . ولم يبق منه إلا اللحم والعظم يحركهما الشيطان كيف شاء.

والآن تصبحون على خير .. سلام عليكم .

الفصل الثاني عشر

أظهرت القرية غن بكرة أبيها أسفها العميق ، واستبشاعها الكبير لتلك الجريمة الغريبة ، وساد الوجوم الوجوه ، ودمعت العيون حسرة وحزناً ، ونبت في القلوب حقد هائل ، لقد وجدوا «عبد الغفار الطبال » مخنوقاً في كوخه الحقير ، كان ملقى على حصير مهرئة ، وحملقة الرعب ، في عينيه الجامدتين ، وتقلصات ملامحه المذعورة ، وبشرته الزرقاء توحي كلها بالكآبة ، وكان العبث واضحاً بالكوخ . فالأشياء القليلة التي يمتلكها « عبد الغفار » مبعثرة ، الجوال الذي يضع فيه الأرغفة ، والصرة التي تحتوي على الملح ، وبعض الأواني الفخارية والبلاص ، حتى أرض الكوخ محفورة في عدة أماكن ، وكان واضحاً أن جريمة القتل قد ارتكبت بدافع السرقة ، فقد كان يشاع عن « عبد الغفار » أنه يمتلك ثروة لا بأس بها جمعها من التسوّل والصدقات ، وقد يكون عجباً ألا تشير أصابع الاتهام إلى « خفاجة » ، لكن « خفاجة » — كما هو

معروف ومؤكد ـ لا يفكر في قتل الضعفاء والمتسوّلين من أمثال « عبد الغفار » ، إن « خفاجة » يعتبر قتل « عبد الغفار » حطة ومهانة تلحقان بكرامته وسمعته ، وصيده دائماً ثمين ، ولا يضرب ضربته إلا لسبب قوي ، أو بثمن غال .. إن « عبد الغفار » عدو تافه ، والانتصار عليه لا يعد انتصاراً في نظر « خفاجة » ، والناس يعرفون ذلك ، حتى العمدة نفسه لم يفكر في اتهامه ، «والشيخ عنبة » لزم الصمت ، وتمتم « الله أعلم .. سبحانه .. يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، وفي الليلة الظلماء » .. وكانت كلماته المسجوعة تلك .. تعبيراً شاملاً عن الموقف .. ولم يكن من المعروف أن «خفاجة» وحده هو الإنسان الشرير في القرية كلها .. فالشر موجود في كل حارة .. والشيطان أكثر من بيت يلهو به ، ويدبر مكائده . والحرب قد أحالت الناس إلى وحوش ، والفقر يدفع إلى أفظع الجرائم ، واستبداد السلطان ينعكس على الرعية ، فيتحول بعضهم إلى مستبدين بدرجة أقل ، وفي مجال أضيق ، والفساد كالوباء .. عندما يجد الجو المناسب .. ينتشر .. ويكثر عدد ضحاياه .. وقال « خفاجة » وقد علم بالخبر :

ـ إنه لشيء مؤلم .. الرجل لا يقتل إلا رجلاً مثله .. وقاتل « عبد الغفار » تافه حقير مثله ، أقسم لو عرفته لأدبته .. ولا بد أن أعرفه يوماً ما .

وقهقه « خفاجة » وهو يقول :

- القاتل يريد أن يمضي على منوالي .. ولكن ليس له تفكيري ولا مثالياتي .. لا تضحكوا فالقتل فن .. والقاتل لا بد أن يكون ذا ضمير .. ما ذنب « عبد الغفار » المسكين ؟ عشرات غيره يستحقون القتل هنا .. لا شك أن الجاني - كالمجني عليه - ضعيف تافه مجنون .

وبالرغم من التحريات الدقيقة .. والتفكير المتصل .. لم يعثر المحققون . .ولا العمدة على خيط من نور يرشد عن القاتل الحقيقي . . ومن ثم لفوا « عبد الغفار » المسكين في أكفانه .. ووراوه التراب .. وقيدت الحادثة ضد مجهول ، وعاد الصمت الحزين يلف القرية من جديد .. وأخذ مقرىء القرآن يردد في صوت دامع :

(من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض .. فكأنما قتل الناس جميعاً .. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) .

وجلس « يني » مع « خفاجة » ليلة المأتم .. وبينهما زجاجة الويسكي ممتلئة لنصفها .. و كأسان فارغان .. وأخذ «الخواجه» يصب الخمر ، وسيما القلق بادية على وجهه ، لم يكن « الخواجه » حزيناً على فراق « عبد الغفار » بل إنه كان أكثر الناس سعادة بحدوث هذه الجريمة ، « فعبد الغفار » كان يضايق « الخواجه » لحد بعيد، ويسدد إليه كلمات جارحة متستراً خلف بلاهته الظاهرة، والغريب أن « عبد الغفار » المتشرد الأبله كان يرفض صدقات

« الخواجه » ، ويشمئز منها .. و« الخواجه »لا ينسى ما فعله « عبد الغفار » عند الاجتماع الكبير الحاسم الذي عقده بالأمس .. لكن قلق « الخواجه » كان له مصدر آخر .. إن « خفاجة » لم يقتل « عبد الغفار » .. ومعني ذلك أن هناك قاتلاً آخر .. في القرية إذن هناك رجال يستطيعون أن يقدموا على جريمة القتل .. إذن « فالخواجه » في خطر .. وعليه أن يبحث عن القاتل لا ليشي به .. أو يسوقه إلى حبل المشنقة جزاء فعلته .. ولكن ليضمه إلى صفه .. ويأمن جانبه .. لم يعد « خفاجة » وحده بقادر على حمايته .. وفهم « خفاجة » ما يعتمل في ذهن « الخواجه » ، فأغضى قليلاً ، وأخذ يتجرع الكؤوس حتى جرى الدم في وجهه .. وبرقت أشعة شيطانية في عينيه وقال :

ـ يبدو أنك حزين من أجل « عبد الغفار » ؟

قال يني :

ـ إنني ألمح أشياء جديدة في القرية .. وتنذر بشر مستطير .

ـ لكني أعتقد أنها مسألة تافهة .

ـ هذه كلمات يعوزها الدليل.

وأخذ « خفاجة » يصب بنفسه هذه المرة .. ويقول :

ـ أعترف أني خدعت .

ـ كيف ؟

ـ هذا الحقير « عبد الغفار » لم يكن يملك إلا بضع ريالات .

ـ ما معنى ذلك يا خفاجة ؟

وابتسم خفاجة في خبث وقال :

ليس له سوى معنى واحد ، لتكن مطمئناً .. لا جديد في القرية .

ـ معنى ذلك أنك قتلت « عبد الغفار » ؟

ـ ولم أجد مائة جنيه كما كنت أتوقع .. وجدت بضعة ريالات لا تكفي لشراء خروف صغير .

ثم أخذ خفاجة يترنم بصوت أجش :

ـ خروف تائه يا اولاد الحلال .

وحلاوته .. ريال .

ها .. ها .. ها ..

هذا الأعرج المأفون جعلني أضحوكة، لشد ما كرهته يوم الاجتماع، لقد أقسمت أن أضع حداً لحياته .. كان تافهاً ولا يساوي في نظري بعوضة .. لكن ألم تجرب يا خواجه مضايقة بعوضة ذات مساء .. حدث لي ذلك عشرات المرات .. بعوضة تأتي ، وتزعجني بطنينها وقرصاتها فأدفعها عن وجهي دون جدوى ، وتحرمني النوم والراحة .. تلك هي القضية .. « عبد الغفار » لا يخرج عن كونه بعوضة وقد

قاسيت من مضايقاته الكثير ، ومن ثم لم أجد مناصاً من القضاء عليه ، لعلي أستطيع النوم ، وأنجو من طنينه وقرصاته .. معقول ؟ .

ونظر إليه « الخواجه » في راحة ، وأشرق الفرح في عينيه ، وآمن الآن أنه لم يولد جديد في القرية ، وأن القاتل هو « خفاجة » ولا أحد غيره ، وأنه لا مبرر للقلق الذي انتاب « الخواجه » وأزعجه منذ ارتكاب الجريمة ، وهتف « الخواجه » في مرح صبياني:

ـ معقول جداً .

ثم قرع كأسه في كأس « خفاجة » وقال متفائلًا:

ـ في صحة البعوضة .

وضحك الإثنان .. ضحكا وقد لعبت الخمر برأسيهما حتى كادا يستلقيان على ظهرهما من الضحك ثم أردف « خفاجه » :

ـ وهناك نقطة قد تغيب على ذكائك يا حضرة الخواجه الح
إن الشك في وجود قاتل غيري مسألة جوهرية وحيوية جداً .. لسوف تتصرف الأفكار عني ، وتبحث عن رجل آخر .. وعندما أسفح دم العمدة لن تنحصر الشبهات فيّ وحدي .. لماذا ؟ لأني لست القاتل الوحيد .. أتفهمني ؟

وتمتم الخواجه :

ـ أنت بارع .

ـ هذا لا يكفي .

ـ وسأعطيك زجاجة وسكي كاملة .

ـ دائماً لا تتنازل عن بخلك .

ـ وخمسة جنيهات هدية يا « خفاجة » .

ـ ما أرخصك يا « عبد الغفار » حياً وميتاً .. خمسة جنيهات ثمناً لرأس « عبد الغفار » يا خواجه ؟ . أنت ظـــالم .. ليكن .. لكن ما ثمن رأس العمدة ؟ إن رأسه غالية .. ستموت بعدهـــا رؤوس كثيرة دون أن ألمسها .. لا شك أنك تعرف ماذا أقصد.. خواجه .. أنت حمار كبير .

فضحك الخواجه ، وأبدى ابتهاجه للنكتة برغم وقاحتهـــا ، وتصغيرها لشأنه ، لكن الخواجه في حقيقة أمره كان خائفـاً . إن « خفاجة » أصبح رجـلًا خطيراً ، و« يني » الآن يخاف على نفسه منه ، وبعد أن يقتل العمدة ، لن تقف قوة في طريقه . إنه منـذ الآن يملي شروطه على « الخواجه » ، فماذا يفعل بعد أن يـتم النصر له وللخواجه ؟ . لسوف يأكل أحدهما الآخر ، « خفاجة » واسع المطامع .. واسع الدهاء قاس لا يرحم .. والخواجـه يجب أن يحتاط لنفسه منه .. ونبتت في رأس الخواجه فكرة جهنمية .. وقرر بينه وبين نفسه أن يتخلص من « خفاجة » بأي ثمن .. لكن متى يكون ذلك ؟ بعد أن يقضي على العمدة .. « الخواجه » لن يعجز ، يستطيـع أن يتصل بأصدقائه الإنجليز ، أو بصديقه مأمور المركز ، والرشاوى تصنـع المستحيل ، وعندئذ يمكن إصدار أمر

باعتقال « خفاجة » لخطورته على الأمن ، أو تلفيق أي تهمـة له ، وبهذا يتخلص الخواجه من العمدة ومن « خفاجـة » كما تخلص من « عبد الغفار » ، وفي المستقبل سيعمل على التخلص من « الشيخ عنبة » بطريقة أو بأخرى ، وشعر الخواجه بارتياح مباغت ، وأيقن أن الدنيا كلها طوع أمره ، وأنه ليست هناك قوة في الوجـــود يمكنها التصدي له ، أو اعتراض مشيئته .. وهتف الخواجـــه في فرح حقيقي :

ــ سأعطيك عشرين جنيهاً (يا خفاجة) .. تحت الحساب .

ــ وعندما تتم المهمة ؟

ــ أعطيك ثلاثين أخرى .

فابتسم « خفاجة » ، وأخذ يتطوح من أثر الخمر ويقول :

ــ ليس بين الكرام حساب .

الفصل الثالث عشر

لازم العمدة فراشه ، وشعر بثقل وضعف في الجانب الأيسر من جسده ، وكان لهذا السقم الذي أصابه أثر عميق في نفسه، حاول أن يقاوم المرض فكان الداء أقوى منه ، لقد مرت به أوقات من قبل كان لا يعتقد أن هناك من يستطيع قهره ، كان منتشياً بقوته وماله وسلطانه ، وكانت صيحته تثير الخوف في قلوب الرجال من حوله ، أما اليوم فهو شيء آخر ..حتى لسانه لا يطاوعه ، الكلمات هي الأخرى تخرج ثقيلة بطيئة متعثرة ، وكاد البكاء يغلبه وهو يستقبل « الشيخ عبد العزيز شلبي» و «الشيخ عنبة »، لكنه تماسك، وحاول أن ينهض لاستقبالهما ففشل ، فربت « عبد العزيز » على يده في حنان وأقسم ألا يتحرك من مكانه ، كان الزائر رقيقاً مواسياً في حديثه ، وكان الألم والعزاء باديين في نظراته ونبراته ، وتمتم العمدة في انفعال :

أنت أخي يا عبد العزيز .. ماذا لو تم ما دبرته لك ، وذهبت بعيداً مع المحاربين؟ لا شك أني كنت أشعر الآن بالضنك والعذاب النفسي .. إنني أحمد الله أن أراك بجواري وسعادتي بقربك مني ، تجعلني أنسى مرضي . . وأنت يا « شيخ عنبة » بارك الله فيك ، وأطال عمرك .. لقد أنرت قلبي بكلماتك المؤمنـــة . نعمَ الأخ أنت .. إنني أدرك الآن من أنتما .

كان يتكلم كرجل يودع الحيـــاة .. إن ضعفه المفاجىء ، وعجزه أمام المرض ، قد أورثه حساسية مفرطة ، وزرع في قلبه بعض اليأس ، ولم يخف ذلك على « الشيخ عنبة » الذي أخذ يحدثه عن الأمل والثقة في الله ، ويمنيه بالشفاء العاجل لكن العمدة قال في شك :

– هذه مقدمات مرض الشلل والعياذ بالله .

فرد عبد العزيز شلبي :

– فأل الله ولا فألك يا رجل .. قل كلاماً غير هـــذا ، إنها مجرد « رطوبة » سرعان ما تزول بقليل من الدفء والراحة .

همس العمدة في ألم :

– لن نعيش أكثر ما عشنا .. إنها أيام مكتوبة .

وأفلتت من بين أهدابه دمعة لمحها « الشيخ شلبي » الذي بادر قائلاً :

– أتبكي ؟ .

ـ أبكي على عمري الذي ضاع في العصيان .. إنني أتمنى الآن أن أعيش مائة عام أخرى .. أنا لا أعترض على مشيئة الله.. ولكني أريد الحياة لأكفر عن خطاياي .

قال « الشيخ عنبة » في ثقة :

ـ ستعيش .

فنظر العمدة إليه في شك قائلًا :

ـ أتجاملني ؟

ـ سترى .. ثم لا تنس أن الإنسان بعد توبته الصادقة يولد من جديد .. التوبة النصوح تجب وتمسح ما قبلها من خطايا .. عندما يلقى الإنسان الله بقلب تائب يفسح له مكاناً طيباً رحباً في جنته .

ـ إنني أشم من كلامك رائحة الإيمان والأمل .. وأشم رائحة الموت أيضاً .. آه .. لك ألف حمد يا رب .

فتدخل « الشيخ شلبي » قائلًا :

ـ ما رأيك في السفر إلى القاهرة ؟

قال العمدة في لهفة :

ـ وما جدوى ذلك ؟

ـ نزور أهل البيت ، ونغير الجو .. ثم تعرض نفسك على أحد أطبائها المهرة .

قال عنبة :

ــ فكرة لا بأس بها .

وقال شلبي :

ــ ولن يعترض « عنبة » على مصاحبتنا .

وتمتم العمدة :

ــ الطبيب هو الله .. والشافي هو الله .. لكن قلبي منشرح لهذه الفكرة .

فأردف « عبد العزيز شلبي » :

ــ وأحمد أفندي ابني .. يقيم في مسكن صالح بالسيدة زينب ويعرف الكثير عن القاهرة وأطبائها .

وارتسمت أمارات الاطمئنان على وجه العمدة ، وألقى برأسه على الوسادة الناعمة ، وقال ونظراته إلى سقف الحجرة :

ــ لا مانع .

* * *

وذات يوم كان « أحمد » جالساً في حجرته بحي السيدة زينب ، وأمامه أوراق ومساطر وبراجل ومناقل ، والعرق يتساقط على جبهته ، كان يعمل لكن ذهنه كان منصرفاً إلى أحداث اليوم، إن

ما حدث شيء فريد من نوعه ولم يسمع به أحد منذ سنوات ، لقد فكر السلطان « حسين كامل » .. في زيارة مدرسة الحقوق .. وعملت الترتيبات اللازمة التي تليق بعظمة السلطان وهيبتـــه ، كي يقوم الطلبة والأساتذة الأجانب والموظفون باستقباله استقبالاً رائعاً مناسباً .. ولم يدر بخلد أحد أن شيئاً ما يدبر في الخفاء ، ولقـــد فكر الطلبة في الأمر ، إنهم يعرفون السلطان جيداً .. يعرفون أنه يحكمهم إسماً والإنجليز هم الحكام الفعليون ، ويعرفـون أن السلطان رضي بالاحتلال وقبل الحماية ـ تلك الكارثة الكبرى ـ ولم يعترض على الإجراءات الجائرة التي يتخذها قائد القوات في مصر، تلك الإجراءات التي انتزعت الرجـــال والأقوات والحريات .. وحق الحياة الشريفة .. وما السلطان في نظر أفراد الأمـة التعساء إلا خادماً أميناً للإنجليز .. فكيف يستقبلونه ويصفقـــون له ، ويهتفون باسمه .. إنهم إن فعلوا ذلك ، وهم شباب الأمة، وعنصرها الواعي المثقف ، والمؤتمن في الغد على مستقبلها وأمورها ، إن فعلوا ذلك فقد أثبتوا على أنفسهم الرضا بالذل والعار . وأصبحوا شركاء في الإثم الكبير .. والخيانة المشينة . وذهل المسؤولون عندمـــا حان موعد زيارة السلطان .. لقد وجدوا الطلبة قـــد انصرفوا ، والمدرجات بمدرسة الحقوق تكاد تكون خاوية على عروشها .. ورأى السلطان بعيني رأسه تلك المظاهرة الصامتة .. أو الاحتجاج الصارخ .. وأيقن أنه أصبح مكروهاً منبـــوذاً برغم الحراس والصولجان و كرسي السلطنة .. وكلمات الرياء والمديح والقصائد

الطنانة التي تمجده.. أدرك السلطان الحقيقة.. وأدركها المسؤولون، فانعكست عليهم ضيقاً وحنقاً .. فصدرت الأوامر بالاعتقال والفصل والاضطهاد .. كان « أحمد » يفكر في كل ذلك ، وهو منكب على أوراقه ، وكان حزيناً لأنه لم يكن واحداً من اولئك الرجال الذين أقدموا على موقفهم البطولي وهم يعلمون أنهم يعرضون أنفسهم بذلك لأخطار كثيرة أكيدة ، لكنه كان يعزي نفسه بأن المعركة قائمة ، وأنها لم تزل في بدايتها ، وأن مصر كلها ستشتعل يوماً ما بثورة وتحدياً لأولئك الذين يعتدون على حق الحياة الشريف المقدس ، وفكر « أحمد » في أن يكتب خطاباً « للشيخ عنبة » يشرح له هذا الأمر ، وخاصة أن الصحف لم تكتب عن حقيقة الزيارة وما تم فيها ، وإنما أحاطتها — زيفاً وكذباً بمظاهر الروعة والحماسة .

لكن الباب يدق .

ويهرول « أحمد » آملاً في استقبال صديق له يسليه ويستذكر معه الدروس ، ويناقش معه أمور السياسية . . لكنه يفاجأ بأبيه والعمدة « والشيخ عنبة » .. و« صابرين » بنت العمدة .. فيرتجف ويتلعثم ، ويبدو الخجل على ملامحه الغضة .. لكن أباه يسرع قائلاً :

— تفضل يا حضرة العمدة .. لا بد أن تستريح أولاً . فقد كان السفر مرهقاً .

* * *

ظل « أحمد » افندي أغلب الوقت مرتبكاً .. لا يستطيع أن يلم شتات نفسه .. ربما حلم مراراً أن تأتي « صابرين » .. وأن يضمها مسكن واحد .. وأن تقع عيناه عليها .. وتقدم له الطعام والشراب ، وتتحدث معه .. لكنه لم يكن يتوقع أن يتحقق حلمه على هذه الصورة .. وإن كان الأمر في حد ذاته لا يستأهل كل الغرابة . فمرض العمدة مسألة ظروف .. واصطحابه لصابرين كان لمجرد خدمته .. وإعداد لقمته .. والسهر على راحته .. فضلاً عن أنها كانت تحلم بزيارة القاهرة المدينة الكبيرة ذات المآذن والقباب والمباني الشاهقة ، الغاصة بالأفندية والباشاوات والمخترعات والكهرباء وكل الأشياء الجميلة .

وكان « أحمد » يذهب في الصباح إلى مدرسة المهندسخانة .. ويخرج الرجال الثلاثة من بعده إلى الزيارات وإلى الطبيب ثم يعودون وقت تناول الغداء . ويعود « أحمد » وقت العصر ، ويرافقهم إذا ما خرجوا في المساء ، وطول الوقت الذي يقضيه بالمسكن .. يحاول جاهداً أن يداوي انفعالاته .. ويتجنب التحدث مع « صابرين » بل يخشى مجرد النظر إليها . إلى أن عاد ذات يوم وكانت «صابرين» وحدها .. والرجال الثلاثة في الخارج . ووجد « أحمد » نفسه غارقاً في بحر من الخجل قصد حجرته ومكث فيها فترة ليست بالقصيرة . كان يفكر : أيسقط ما



بينها من كلفة ، وينطلق في الحديث معها ؟ لكن قوة خفية تشده إلى حجرته .. وترغمه على الوقوف مكانــــه لا يتحرك .. لكن « صابرين » تدخل عليه .. وعيناها تلمعان بالفرحة :

ـ هل أعد لك الغداء ؟

قال منكساً رأسه :

ـ سأنتظرهم .

ـ لن يعودوا قبل الثامنـة مساء . الطبيب سوف يجري بعض الفحوص لأبي ويبدو أنها ستستغرق وقتاً طويلاً .

ولما لم يجب بكلمة .. قالت وهي تعود أدراجها :

ـ لسوف أحضر لك شيئاً تتبلغ به .

لم يجد لديه أدنى شهية لتناول الطعام ، وأخذ يلوك لقيمات في فمه دون أن يستطيع استساغتها أو ابتلاعها ، ثم وجـد نفسه يقول :

ـ وأنت ألا تأكلين ؟

ـ طعامي هنا بالمطبخ .

ـ لنأكل معاً .

ـ عيب كبير .. لم أتعود على ذلك .

تريد أن تقدم دليلاً على أدبها واستقامتها ، وتريـد أن تثبت له أنها زوجة صالحة للمستقبل ، وهو يعلم أن من حسن صفات الفتـاة أن تحتجب في بيتها ، ولا تؤاكل الرجال من أفراد أسرتها ، فما بالك بمن رشحه قلبها للزواج !

وهبطت عليه شجاعة مفاجأة لا يدري كيف جاءته ، وهتف :

ـ ستأكلين معي وإلا أتيت لآكل معك في المطبخ .

ويبدو أنها سعدت لدى سماعها لعبارته الأخيرة، فقد ابتسمت، وإن اخفت ابتسامتها ، ثم قالت :

ـ وإذا تصادف وقدموا الآن ، فماذا أفعل ؟

ـ أنت لم ترتكبي جريمة .. إننا نأكل .

وأثار هذا الحوار في ذهنيهما عديداً من المشاعر الحلوة الشجية ، إنهما يسرقان لحظات هنيئة ، ليس فيها ما يخجل ، لكنها ـ بالنسبة لمثالياتها ـ تعتبر مغامرة كبرى .. وأية مغامرة !

كان « أحمد » يغسل يديه بعد أن تناولا الطعام ، ووجهه لصنبور المياه حينما سمعها تقول :

ـ زارنا ابن خالي .

ـ هيه .

ـ وكان يريد شيئاً .

ـ أي شيء ؟

ـ لشد ما انزعجت .

لم يكن غبياً .. فقد أدرك أنها تريد أن تلمح له إلى موضوع الزواج .. ومع ذلك فقد لزم الصمت .. لكنها قالت :

وكيف لا أنزعج . . وقد جاء يطلب يدي . . ويلح في سرعة إتمام الزواج ؟

قال « أحمد » دون أن يغادر مكانه أو يدير وجهه :

– وأبوك ؟

– وافق .

عندئذ أدار إليها وجهه .. فلمحت في عينيه الضيق .. والحيرة.. وتمتم :

– مستحيل .

– ولم لا ؟ إن أبي لا يعلم عنك شيئاً يتعلق بي .

– لكن الوقت لم يحن بعد .

قالت في قلق :

هذا ما حدث .. ويجب أن تتصرف .. وإلا انتهى كل شيء .. ستعود في إجازتك الصيفية .. فتجد أن ... أن ... ماذا اقول ؟

فهز رأسه قائلاً :

– أفهم كل شيء .

ودق الباب .

ودخلوا .

كان « أحمد » يستمع إلى أحاديثهم الخاصة بالطبيب .. وهو لا يكاد يعي منها شيئاً .. لكنه علم أخيراً أن حضرة العمدة مصاب بارتفاع في ضغط الدم .. وأن الأمل في شفائه كبير .. وقد يعود إلى حالته الطبيعية في بحر أسبوعين على الأكثر.. وأنه لم يعد هناك داع لبقاء الرجال الثلاثة بالقاهرة أكثر من ذلك .

الفصل الرابع عشر

كان التحسن الذي طرأ على صحة العمدة عقب عودته مدعاة لارتفاع روحه المعنوية ، وإقباله على الحياة من جديد بروح طيبة ، وأمل كبير.. وكانت فرحته بالتحسن فرحة طفل يتيه بثوبه الملون الجديد ، فقرر أن يسافر إلى أحد الكفور المجاورة لزيارة صهره ، فركب حمارته الأصيلة ، يتبعه شيخ الخفراء لاهثاً، وقضى زيارته، ثم اتخذ سمته إلى قريته بعد الغروب بقليل ، وفي منتصف الطريق كانت تقوم قبور القرية المجاورة ، ترتفع بينها أشجار الجميز الضخمة، ونبات الصبار الشائك ، وبضعة نخيل ، وكان لصمت القبور وجلالها إيحاء غريب حزين ، وعند محاذاتها هتف العمدة : « الفاتحة لأمواتنا وأموات المسلمين كافة » . وقبل أن يردد الآيات الكريمة جاءه صوت أجش ساخر ، صوت يعرفه تمام المعرفة ، وقال صاحب الصوت :

ــ لتقرأ الفاتحة على روحك أولاً .

ونظر العمدة عبر العتمة الخفيفة ، فلمح « خفاجة » يهرول من خلف كوخ صغير من القش ، وبيده غدراته ، وكاد العمدة يقع مغشياً عليه من فوق حمارته لولا أن تماسك ، وتسمر شيخ الخفراء مكانه لا يستطيع حراكاً ، وهتف العمدة بصوت راعش متوسل :

- حرام عليك يا « خفاجة » .

- حرمت عيشتك أيها الكلب .

- أنا لم أسيء إليك يا ولدي .. أنا صاحب عيال . فقهقه « خفاجة » ، وسدد غدراته صوت العمدة ، والعمدة يرتجف ، وأخذ يتمتم بالشهادتين شاحب الوجه، وأغمض عينيه منتظراً المصير المؤلم .. إنها لحظات لكنها بدت وكأنها دهراً بأكمله ، كان العمدة يتوقع دوي الرصاص لكن طنيناً هائلاً كان يسد سمعه ، وتطوح العمدة من فوق حمارته ، وارتمى على التراب ، ثم نظر فإذا بخفاجة يعبث بغدراته ، ويحاول فك بعض أجزائها وقد انتابته موجة من الضيق والاضطراب ، وأخذ العمدة يتحسس جسده ، كان يظن أنه قد أصيب ، لكنه لا يجد الآن أي أثر لإصابة .. ماذا جرى ؟ . لقد حدث ما يشبه المعجزة .. إن غدارة «خفاجة» قد تعطلت، وكالغريق الذي يبحث عن قشة يتشبث بها وسط الأمواج الهائجة اندفع العمدة واقفاً ، ونظر إلى شيخ الخفراء المسمر في مكانه وهتف :

ـ أطلق الرصاص يا شيخ الخفراء .

فقهقه « خفاجة » ثانية وصرخ :

ـ وهل يستطيع أن يفعلها ؟

ولم يكف « خفاجة » عن الحركة وهو يحاول إصلاح غدارته ، ولم يزايله الارتباك الذي استولى عليه ، وهتف العمدة مرة أخرى :

ـ إني آمرك .. أطلق الرصاص يا شيخ الخفراء .

لم يزل الطنين القاسي يملأ سمع العمدة ، ولم تزل الرجفة الشديدة تسيطر على كيانه كله ، ولسانه ينطق بالشهادتين ، ودوت طلقات .. وظن العمدة أن حياته قد انتهت ، لكنه لم يستشعر ألماً ما بجزء من أجزاء جسمه ، ورفع عينيه ، فإذا « بخفاجة » وقد تدلى فكه السفلي من الرعب ، ورآه يترنح ، ثم تقع الغدارة من يده ، ويسقط على الأرض دون أن يستطيع الصياح ، وهتف العمدة :

ـ ماذا جرى ؟

قال شيخ الخفراء :

ـ أنا خال من المسؤولية .. حضرة العمدة .. حضرتك أمرتني بإطلاق الرصاص .

ثم زحف الإثنان صوب « خفاجة » .. وحاولا أن يجلساه

لكنه كان يرسل أنفاسه المتحشرجة في صعوبة واضحة ، وصرخ شيخ الخفراء :

ـ إنه يموت .. رحنا في داهية يا حضرة العمدة .

وهتف العمدة :

ـ أحضر جرعة من الماء .

وجرى شيخ الخفراء إلى المجرى المجاور ، وأخذ العمدة يهمس :

ـ خفاجة .. تكلم .. ماذا جرى لك ؟ أهي إصابة خطرة ؟ لماذا فعلت ذلك يا ولدي ؟ .. لماذا ؟ أنت السبب .

وحينما عاد شيخ الخفراء بالماء الذي يتسرب من بين أصابعه ويديه قال العمدة بصوت باك :

ـ لا فائدة .. مات خفاجة .. من قتل يقتل ولو بعد حين .. إنها إرادة الله .

ونظر العمدة حواليه ، كانت العتمة قد ازدادت كثافتها ، وكانت شواهد القبور تنتصب إلى جوارهما كأشباح غامضة ، وأشجار الجميز الضخمة تقف ثابتة عتيدة وكأن لا يعنيها من الأمر شيء ، ونباح كلاب بعيدة ينساب في آذانها كالأنين الملتاع ، وقال شيخ الخفراء :

ـ كنا في حالة دفاع عن النفس .

فلم يعر « العمدة » كلماته التفاتاً .. وظل هائماً بنظراته فيما

حوله .. ورأس « خفاجة » القتيل على فخذه وآلاف المشاعر تعتمل في قلب « العمدة » .. وعاد « شيخ الخفراء » يقول :

ـ هيا بنا نهرب يا حضرة العمدة .. لم يرنا أحد .. لو استطعنا الإفلات لقيدت الحادثة ضد مجهول وانتهى الأمر .

فلم يكترث « العمدة » لكلامة..ونظر صوب القرية ، فوجد بضعة رجال يهرولون .. على صوت الطلقات التي انبثقت في العتمة منذ قليل ، وما هي إلا ساعة حتى كانت القرية عن بكرة أبيها قد احتشدت حول جثة « خفاجة » .. لقد سرى النبأ في كل مكان ، وكانت الكلمة التي تتردد دائماً : « مات خفاجة..مات خفاجة » .. وكان موت مثله أعجوبة من الأعاجيب ، بل معجزة من المعجزات .. الشيطان لا يموت ، فلماذا يموت « خفاجة » ؟ كان يفكر بعقله ، وكان عقله أكثر ما يكون حدة وذكاء عند ارتكاب الجرائم .. وكان جهازه العصبي قوياً لدرجة غريبة .. لكنه مات.. مات وهو يرتجف ولا يكاد يصدق أن يداً من أهل القرية استطاعت أن تطلق عليه الرصاص .

وكانت الشماتة فيه كبيرة ، أهالي ضحاياه أقسموا أن يوزعوا الشربات ، وأن يتصدقوا على الفقراء بهذه المناسبة (السعيدة) ، وتذكر أحد الرجال « عبد الغفار » المسكين ، فهتف :

ـ خروف تائه يا أولاد الحلال .

وحلاوته ... ريال .

فتبسم بعض الناس ، وضحك آخرون ، أما الباقون فقد لزموا الصمت . لم يكونوا يعرفون هـل يسعدون أم يحزنون . إن المأساة معقدة ، ومـا حدث شيء يشد الألباب والأبصار ، وتمتم « الشيخ عنبة » :

ــ لكن المحرّض لم يزل حياً .. كان « خفاجة » يداً تحركها أطماع خبيثة .

فقال الشيخ عبد العزيز شلبي :

ــ ماذا تقصد ؟

ــ سائل نفسك .. لماذا حاول « خفاجة » أن يقتل العمدة ؟

وهز « عبد العزيز » رأسه وسكت .

وهز الواقفون رؤوسهم ثم أطرقوا صامتين .

وكان صوت زوجة « خفاجة » يضج في الآفاق نائحة « يا سبعي .. يا جملي .. يا أبا العيال » .. وكان نواحها يبعث الألم والحسرة في قلوب الواقفين .

كان مصرع « خفاجة » حدثاً تاريخياً من أكبر أحداث القرية، وكان نهاية لفترة عصيبة ، وبداية لفترة أخرى ، ورأى الناس أن العبرة في مصرعه عبرة خالدة.. لم يستطع ذكاؤه ، ولا دقة تدبيره ولا دهاؤه الخارق ، ولا الرعب الذي بذره في القلوب ، لم يستطع كل هذا أن يقف في طريق المشيئة الإلهية .. وتمتم «الشيخ عنبة» :



وكان نهاية لفترة عصيبة .. وبداية لفترة أخرى ..
ورأى الناس أن العبرة في مصرعه .. عبرة خالدة

– اعتبروا يا أولي الأبصار .

وتلقف « الخواجه » الأنباء المذهلة بقلب واجف .. لقد فسد كل تدبيره .. وفقد ساعده الأيمن .. وبقي « العمدة » حيـــاً .. والفلاحون لم يدفعوا الإيجارات حتى الآن ، وأيقن « الخواجه » أن حياته مهددة بالخطر .. وخاصة أنه المحرّض .. وأهـــل القرية ليسوا سذجاً لدرجة أن يخفي عليهم المحرّض الحقيقي على قتـــل « العمدة » .. وأسرع « الخواجه » إلى وكيله « الحاج إبراهيم » ووجه إليه كلمات موجزة دون مناقشة :

– لسوف أسافر إلى الإسكندرية .. سأبقى هناك فترة قـــد تطول .. يجب أن تسير على نفس السياسة التي رسمتها لـــك .. المتأخرون عن الدفـع سوف أرفـع أمرهم للقضاء .. ولن يستطيع أحد أن يسرق مليماً واحداً من مالي .. إلى اللقاء ...

وفي اليوم التالي كان التحقيق جارياً .. وسيق « شيخ الخفراء » و« العمدة » مقبوضـــاً عليهما إلى المركز لاستكمال التحقيق .. لكن « الخمارة » كانت مغلقة الأبواب .. و« الخواجه يني » قد سافر .. والقرية تحلم بغد جميل .

* * *

وعاد « أحمد أفندي شلبي » من القاهرة في زيارة عاجـــلة ..

وأكد للناس حقيقة موت « السلطان حسين كامل » . وتوليه « السلطان أحمد فؤاد » مكانه .. وجلوسه على كرسي السلطنة برغبة الإنجليز وتأييدهم وموافقته التامة على سياستهم العامة .. وتكليفه رئيس الوزراء السابق بتأليف الوزارة الجديدة .

القسم الثاني

طوفان الثورة

الفصل الخامس عشر

انتهت الحرب عام ١٩١٨ ، بانتصار الإنجليز وحلفائهم، وانتهاء الحرب معناه السلام بالنسبة للعالم أجمع .. ومعنـــاه الحرية والاستقلال بالنسبة لمصر ، ولِمَ لا تنال مصر حريتها وقد تحملت الضنك والعذاب .. وضحت بأبنائها وما تملك أثناء الحرب ؟ لِمَ لا تحظى بالاستقلال .. وهي التي تلقت الوعود الأكيدة من الإنجليز بذلك ؟ وأخيراً .. لماذا لم تتحرر .. وقد انتشرت في أرجاء العالم الصيحة الكبرى التي هتف بها « ويلسون » رئيس الولايات المتحدة، حينما قرر أن تقرير المصير من حـــق أية دولة ، وأن على الدول الكبرى ألا تقف في وجه الدول الصغيرة الـــتي تنشد الحرية والاستقلال والتقدم ؟

إن السلام بمعناه العام شيء رائع وجميل ، لكن ما بالك بسلام جاء على أنقاض الحياة الإنسانية .. وعلى أشلاء الملايين من البشر ،

وبعد أن ذاق الناس في وطننا وفي قريتنا الصغيرة الويلات والنكبات؟ إن الذين أخذوهم بعيداً عن قريتنا مات أغلبهم غرباء ، ولم يعد يعلم أحد كيف ماتوا .. لكن الشيء الأكيد هو أنهم تعذبوا كثيراً .. تعذبوا في العمل الشاق الذي سيقوا إليه ، ومن جراء كميات الطعام الضئيلة.. ولعدم وجود الفراش والغطاء.. ولانعدام اليد الحانية التي تداوي جراحهم وأمراضهم وهم طريحو التراب والأجواء المتقلبة بين الحر الشديد والبرد القارس .. وهكذا جاء السلام حزيناً دامعاً .. مقترناً بأمر النكبات .. لكن الناس كانوا يرقصون ويغنون في عواصم العالم ، ويشربون نخب السلام . كانوا يترنحون سكارى .. حتى ينسوا أهوال الحرب وضحاياه .. ولم يعد إلى قريتنا إلا عدد ضئيل من غربائها . وعاد معهم « أبو المعاطي الشافعي » الذي أنهى مدة عقوبته بسبب اعتدائه على الخواجه .. ولكن « أبو المعاطي » كان أحسن حالاً من أولئك الغرباء العائدين.. وأوشك مؤتمر الصلح الدولي على الانعقاد، وكان لا بد أن يسافر وفد مصري يشرح القضية الوطنية أمامه.. ويطالب بالاستقلال الذي هو حق طبيعي لكل الدول .. في ضوء العدالة وفي ضوء نداء الرئيس « ويلسون » وباسم التضحيات الغالية التي قدمتها مصر أثناء الحرب الطاحنة .

ويهرول «الشيخ عنبة» إلى أنحاء القرية والكفور المجاورة .. ويشرح لهم القضية .. ويطلب منهم التوقيع على (توكيل) أعده الوفد المصري المسافر إلى أوروبا .. حتى يكون لسفر الوفد

ومطالبه صفة قانونية ، ومعبرة عن رغبة الجماهير .. ويكون تمثيل الوفد للأمة ومطالبها تمثيلاً صحيحاً .

لكن الإنجليز يعترضون على سفر الوفد ، ويصدرون أوامرهم إلى مديري الأقاليم بالتصدي لحملة التوكيلات ووقفها . . بحجة أنها مثيرة للفتن . . ومهددة للأمن العام . لكن « الشيخ عنبة » لا يتوقف عن نشاطه . . والعمدة « خلاف عبد المتجلي » يفسح له المجال للعمل ويؤازره . . و « الشيخ عبد العزيز شلبي » يسير إلى جواره ، و « أبو المعاطي الشافعي » الذي أفرج عنه حديثاً .. وقد انتابته نوبة عميقة من الإحساس بالوطنية العارمة . . يشاركهم في العمل .. « والخواجه يني » وقد عاد إلى القرية يؤكـد ولاءه للقضية .. ويبدي تأييده التام لها .. وذات ليلة وفدت كوكبة من رجال الشرطة .. وقصدوا دوار العمدة .. كان العمدة هذه المرة يختلف تمام الاختلاف عن المرات السابقة.. لم يقدم للقادمين كؤوساً من الخمر .. وإنما أحضر لهم أقداحاً من الشاي .. لم يضطرب ولم يتلعثم ولا كلف نفسه مؤونة الجري أمام الموكب الرسمي .. بل ظل ثابتاً في مكانه وقال :

ـ ماذا تريدون ؟

فأخرج الضابط ورقة مكتوبة من جيبه ، وتمتم :

ـ أمر بالقبض على الشيخ « عنبة المتولي » .. و « عبد العزيز

شلبي » .. و« أبو المعاطي الشافعي » لمخالفتهم الصريحـــة للأمر العسكري .

ورفع الضابط عينين ساخرتين إلى العمدة واستطرد :

ـ ثم أمر بالقبض على حضرة العمدة « خلاف عبد المتجلي » .. لإهماله في تنفيذ الأوامر .. ومعاونته للمنحرفين .

شعر العمدة بمزيد من الضيق وهو يستمع أولاً لأمر القبض على الرجال الثلاثة .. وبان الكدر على وجهه .. وعندما سمـــع بأمر القبض عليه هو الآخر .. ارتسمت على وجهه ابتسامة حقيقيــة .. إنها المرة الثانية التي يتعرّض فيها للخطر بسبب المثل العليا التي آمن بها .. وكانت المرة الأولى يوم أن حاول « خفاجة » قتـــله في الطريق العام .. كان العمدة سعيداً حقاً . وخاصة أن صحبته ـ الرجال الثلاثة ـ صحبة طيبة .. ولذا لن يشعر في سجنه الملل .

وتمم الضابط قائلاً :

ـ هيه .. ماذا قلت ؟

قال العمدة دون اكتراث :

ـ العمر واحد يا حضرة الضابط .

فقال الضابط في استغراب :

ـ هذا اعتراف ضمني منك بالتهمة واستهتار بالأوامر العسكرية، وفيه أيضاً إصرار على تصرفاتكم .

فابتسم العمدة قائلاً :

– لم أقل ذلك .

– لكنك تبتسم .

– أبتسم بالطبع .. لأن هذه خطوة غير عملية ، فمعنى ذلك أن الحكومة ستقبض على ملايين العمد في أنحاء القطر وغيرهم من الوطنيين .. فمن أين لها أن تجد السجون اللازمة لهذا العدد كله ؟

وسادت فترة صمت قال العمدة بعدها :

– ثم إننا لا نفعل شيئاً خطيراً .. ننيب عنا بعض ذوي الرأي للمطالبة بحرياتنا .. ألا ترى، أن الحرية حق ؟ ولماذا يمنعون الوفد من السفر ؟.. إنها قضية جائرة كما ترى، إن الحرب لم تنته يا حضرة الضابط .. وليس هناك أي مظهر من مظاهر السلام إلا وقف المعارك الكبرى بين الدول الكبرى .. والدول الصغرى لا تملك السلاح الكافي .. لكنها تملك الصبر والمناوشة والتضحيات ، وتملك الحق الواضح .. ولهذا فإن المعركة هذه المرة ستكون مريرة وطويلة .

لم يخف على الضابط الشاب مغزى الكلمات الصادقة التي يرددها العمدة ، ولم يخالجه أدنى شك في قوة منطقها وعدالتها ، ولعله هو الآخر يؤمن بها أعمق الإيمان ، ومع ذلك فقد هب الضابط واقفاً وقال :

– إنها أوامر يا حضرة العمدة .

ـ أعرف ..

ـ والأوامر لا بد من تنفيذها .

ـ أعرف ..

ووقف الرجال الثلاثة وحضرة العمدة والأغلال في أيديهم ، واحتشد من حولهم رجال القرية ونساؤها وأطفالها ، وكان موكباً مهيباً ، وانطلقت الزغاريد في آفاق القرية الوادعة لكن الدموع كانت تترقرق في العيون ، وهتف « الشيخ عنبة » قائلًا :

ـ إنها رحلة إلى الله ..

وردت عليه أصوات كثيرة :

ـ ستعودون بالسلامة .

وكان « أبو المعاطي الشافعي » مشرق الوجه ، متهلل الأسارير ، رافعاً هامته في افتخار ، شتان بين الأمس واليوم ، أخذوه من قبل بتهمة الشروع في قتل ، واليوم يقبضون عليه بتهمة الوطنية .

وكانت « صابرين » تبكي بحرقة ، وعيناها بدتا مثل كأسين من الدم ، كانت تقول : أبي مريض وصحته وسنه لا يحتملان السجن ، و « الشيخ عنبة » هو الآخر أصبح شيخاً محطماً .. فقاطعتها أمها قائلة :

ـ إن أباك لا يرحم نفسه .

ـ إنه لم يفعل شيئاً يعاقب عليه .

ـ لماذا لم يفكر في تهدئة « عنبة » ؟ . . لم تكد تنتهي الحرب حتى بدت لنا المتاعب من جديد .. أقول الحق . . « الشيخ عنبة » رجل مغامر .

قالت صابرين :

ـ إنهم لا يفعلون إلا ما يفعله سعد باشا والوطنون المخلصون .

ـ لكن يا ابنتي....

ـ لكن ماذا ؟ إن التخلص من الإنجليز ، وطلب الحرية كما يقول « الشيخ عنبة » بحق واجب يفرضه الدين .

وبرغم الدموع التي كانت تنسكب من عيني « صابرين » إلا أنها كانت تشعر بفرحة غامرة في أعماقها،وهي تسمع الناس يثنون على شجاعة أبيها وإخلاصه ووطنيته وهو الرجل المسن المريض ، وكانت سعيدة لأن موعد عقد قرانها على ابن خالها قد تأخر . . إنها لم تزل تحب « أحمد شلبي » الذي أوشك أن يكون مهندساً ، ذلك الذي اختاره قلبها ، وهي تبدي لأمها أنها لم تكن تميل لذلك الارتباط المقترح بابن خالها ، ومع تبسطها في الحديث مع أمها ، واعترافها لها بخلجات نفسها إلا أنها كانت عاجزة تمام العجز عن التصريح لأبيها بحقيقة مشاعرها ، ثم إن أباها لم يفكر في أخذ رأيها في أمر يخصها ، لقد تقدم ابن خالها .. ووافق أبوها على الفور،

واتخذت الإجراءات المؤدية للزواج .. وكان على وشك أن يتم لولا حادث الاعتقال الأخير .

ولم يكن حادث الاعتقال بداية لانطفاء الروح الوطنية بالقرية .. ومثبطاً لحماستها .. فقد أسرع طلبة المدارس الثانوية والأزهر الشريف ، وأعدوا التوكيلات ، وأخذوا يجمعون التوقيعات من جديد .. وكان هذا التصرف مدعاة لفرحة شاملة بعثت الأمل والفخر في قلوب الأهالي .. ولما ترامت أنباؤها « للشيخ عنبة » ورفاقه في معتقلهم .. صفقوا طرباً .. وترقرقت الدموع في عيونهم .. وتمتم «عنبة» :

إن النداء الخالد لن يموت .. نداء الحرية أيها الرجال .. وكيف يموت وجيلنا الصاعد نراه بأعيننا يحمل الراية دون خوف .. لقد تحررت العقول من الأوهام أيها الرجال ، ولهذا فأنا واثق من النصر .. إن أبناءنا الضعفاء يهتفون للحرية .

وصمت برهة ثم أخذ يترنم بنبرات متهدجة :

– يقول حبيبي ، من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .. نحن لا نرهب « السلاطين » ولا « المندوب السامي » .. إن عدونا الحقيقي هو الخوف ، وقد تغلبنا عليه .. وقيودنا الحقيقية ليست هذه السلاسل التي في أيدينا وأرجلنا .. آه .. يقول حبيبي : « قيد الأغلال ، أهون من قيد العقول بالأوهام .. » لو مت الآن أيها الرجال لمت سعيداً .. إني أرى نذر الثورة .. أراها في عيون

الصبية والشبان والرجال، والنساء أيضاً .. إن تجربة السنين الطويلة من الظلم والقسوة والعذاب قد خلقتنا خلقاً آخر .. انتظروا الثورة الشاملة .. هذه الثورة لن يحمل لواءها زعيم، ولن يدعو إليها حزب من الأحزاب .. الشعب هو الثائر .. وهو الزعيم .. وهو الذي يحتمل التضحيات .. انظروا.. إن « سعـــد » لم يزل حراً يروح ويجيء .. لكن الحكومـــة قبضت على « خلاف عبد المتجلي » و« أبو المعاطي الشافعي » و« عبد العزيز شلبي » .. والعبـــدلله « عنبة المتولي » .. وآلاف غيرنا .

وشرد « عنبة » ببصره بضع لحظات ثم همس :

ـ لسوف يكتسح طوفان الثورة أحزان الماضي وذله وعاره .. وسنولد من جديد .

وأراد « أبو المعاطي الشافعي » أن يخفف من حدة التوتر ، فقال ضاحكاً :

ـ أرجو ألا تكون ولادة متعسرة .

قال « عنبة » جاداً :

ـ فيها السلامة إن شاء الله .

وقال حضرة العمدة :

ـ لماذا لم يحققوا معنا حتى الآن ؟

فرد عليه « عبد العزيز شلبي » :

ـ الظاهر أنه حبس تحفظي .

وقال « أبو المعاطي » دون أن يبدو على وجهه إثارة من خوف :

ـ إني أشم رائحة الكرابيج .

ظلت حركة التوقيعات ماضية في طريقها ، ولكن شيئاً غريباً حدث في القرية .. لقد فوجئوا ذات مساء « بصابرين » بنت « العمدة » تحمل في يدها أقلاماً وأوراقاً .. وتمر على نساء القرية لتجمع بصماتهن وتوقيعاتهن .. برغم اعتراض أمها .. وترديدها دائماً :

ـ يا للفضيحة يا ابنتي .. أتفعلين مثلما يفعل الرجال لو علم أبوك بالأمر للقنك درساً قاسياً في الأدب .

الفصل السادس عشر

إن أحداً لم يعط الإشارة كي يندفع الطوفان ، ومتى كان الطوفان يتلقى الإشارة من أحد ؟ الطوفان يتدفق نتيجة عوامل طبيعية ، ويد المشيئة الإلهية هي التي تخطط له .. وتضع فيه الطاقات الهائلة ، ثم تدعه ينطلق .. وهكذا قامت ثورة ١٩١٩ في مارس .. إن « سعد زغلول » لم يعط الإشارة ، ولا أحد من الزعماء أو الأحزاب ، أفواج الشباب والرجال هي التي ثارت يوم أن منع الإنجليز سفر الوفد .. ووجه القائد الإنجليزي « وطسن » إنذاره الشهير .. ثم ألقى القبض على بعض الزعماء ، سارت المظاهرات سلمية في كل مكان . في القاهرة حيث بدأها طلبة المدارس العليا .. وفي الجامع الأزهر ، وفي الشوارع وعنابر السكة الحديد ، ومن مسجد أبي العباس في الإسكندرية وفي الزقازيق دمنهور والاسماعيلية وطنطا وأسيوط والمنيا .. في المدن كلها والقرى .. بالوجه القبلي والبحري .. لم يكن هناك ترتيب أو تنظيم معين ، وهكذا انطلق الطوفان .. الإرادة الشعبية التي لا

تقهر ، وجن جنون الإنجليز .. لم يتوقع أحد هذا الزحف الهائل ، من شعب صابر أعزل ليس له قيادة منظمة ، ولا يحكمه حاكم شريف . ولا يطيق الأعداء صبراً، وكيف يستسلمون وهم الذين انتصروا بالأمس على أقوى دول العالم .. وأرغموها على الركوع والاستسلام ؟ أيأتون اليوم ويستسلمون لإرادة شعب صغير عار من القوة المادية ؟ وكيف يستسلم المنتصر القوي ؟ وانطلقت رصاصات الأعداء الطائشة في صدور الأبرياء في كل مكان.. وسقط الشهداء، ويقرؤون أسماء الشهداء فلا يقعون على اسم زعيم أو رجل مشهور.. أغلب الضحايا من العمال والفلاحين وصغار البقالين والموظفين والطلبة في المدارس والأزهر.. وهكذا فهم الإنجليز أن الثورة ـ استدلالاً بأسماء الشهداء ـ ليست ثورة زعماء .. ولا أحزاب ، وإنما ثورة أمة بأسرها .. ومن هنا تكمن خطورتها.. ويحاول الإنجليز أن يرسلوا بقواتهم المسلحة في كل مكان .. لكن أنى لهم ذلك ، وقد هرع الشعب في كل مكان إلى خطوط السكك الحديدية وأسلاك البرق والتليفون كي يدمرها .. يدمرها لا رغبة في التخريب ، ولا بدافع الفوضى ، ولكن لكي يعوق تقدم الأعداء ، ويوقف شرورهم .. والمعركة حاسمة .. والجنون يسيطر على عقل القائد الإنجليزي وعقول قواته .. ثم يصدر بيان عسكري :

ـ جناب القائد العام للقوات الإنجليز .. في القطر المصري .. ينذر الجمهور .. أن كل من يتلف مواصلات سكك الحديد أو يلحق بها أي عطل .. أو يعبث بها بأي وجه من الوجوه .. يعرض

نفسه للإعدام رمياً بالرصاص .. بمقتضى الأحكام العرفية .

ويضحك « الشيخ عنبة » ويشاركه العمدة ، وأهـــل القرية الضحك ، وهم يقرؤون ذلك البيان الملصق على باب « الدوار » وكان عنبة والرجال الثلاثة قد أفرج عنهم بعد بضعة أسابيع من الاعتقال .. ويقهقه « عنبة » في سعادة ويقول :

ـ هذا القائد المجنون ماذا يقصد؟ أيريد منا أن نفسح له الطريق ، ونستقبل قواته مرحبين لأنهم قدموا لسحق الثورة والثوار ؟ إنهم لم يكفوا عن قتلنا قبـــل الأمر العسكري وسيصرون على سفك دم الثوار دائماً .. ما دام النداء الخالد يتردد في أنحاء مصر .

ويذهب إنذار القائد العام أدراج الرياح ، ويظل طوفان الثورة مندفعاً قوياً لا يرهب أحداً .. والثـــوار لا يكفون عن إتلاف السكك الحديدية .. والتعرض للمعتدين دون خوف من رصاصهم .. فيأتي إنذار آخر ، وما أكثر الإنذارات التي تذاع آنذاك :

ـ جناب القائد العام ينذر ....

إن القرى الواقعة بقرب الخطوط الحديدية . . التي يحدث بها تلف تكون مسؤولة عن نفقات الترميمات وكذلك عن التعويضات في حالة إحراق المحطات ، أو حدوث نهب أو سلب .

ويضحك العمدة ، برغم تضعضع صحته وتأثير السجن السيء عليها ، ويقول « للشيخ عنبة » :

- أتعتقد يا « شيخ عنبة » أن التعويضات والغرامات التي سيفرضونها علينا ستكون أكثر أو أغلى مما أخذوه منا أيام الحرب الطاحنة ؟ أخذوا الرجال والحبوب والحيوانات آه .. وألف آه .. يجب ألا نستسلم هذه المرة بأي شكل .

ويهز « الشيخ عنبة » رأسه قائلًا :

- تصوّر يا حضرة العمدة أن عــدد العمال الذين ساقوهم إلى ميدان القتال بلـغ مليوناً ونيفاً !! أقسم لو قامت الحرب الرسمية بيننا وبين الإنجليز لما خسرنا نصف هذا العدد .. كنـا نخسر دون ثورة .. فمرحباً بالضحايا ونحن أصحاب قضية عادلة .

الطوفان ينطلق .

والضحايا يسقطون .

والسكك الحديدية ما زالت تخرب برغم الإنذارات .. وبرغم حراسة الإنجليز لها ، ويأتي إنذار آخر :

- جناب القائد العام ينذر .

كل حادث جديد .. من حوادث تدمير محطـات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية .. يعاقب بإحراق القرية .. التيهي أقرب من غيرها إلى مكان التدمير .. وهو آخر إنذار .

ولم تكن كثرة الإنذارات .. ولا المزيد من القتل والسجن والإرهاب بقادر على أن يقف في وجه الطوفان ، « فالشيخ عنبة »

يدعو شباب القرية ورجالها للزحف صوب مدينـــة زفتي ـ أقرب مدن المركز ـ للمشاركة الفعلية في الثورة ، ويخرج المئـات سيراً على الأقدام .. ويقطعون ما يقرب من إثني عشر كيـلو متراً ، وأغلبهم حفاة الأقدام ، ولعل أكثرهم لم يتناول طعام الإفطـار ، وفيهم من لا يحمل في جيبه مليماً واحـــداً .. وأكثرهم لا يعرف القراءة والكتابة .. وفي زفتي تطوّرت الأمور إلى حـادث غريب مثير .. حادث لا ينساه التاريخ .

الفصل السابع عشر

عاد « أحمد شلبي » إلى حجرته بالسيدة زينب، متعباً مكدوداً، وكان إجهاده النفسي أضعاف إجهاده الجسدي ، لقد ذهب صبيحة ذلك اليوم إلى الأزهر للاشتراك في مظاهرة كبرى .. ولحضور المؤتمر الكبير الذي ستناقش فيه القضية الوطنية ، وللاستعداد لتشييع جنازة الشهداء الأبرياء.. لكن القوات الإنجليزية حاصرت المساجد ، فقصد لتوه إلى مسجد الحسين ، فلم يستطع الإفلات من الحصار المضروب ، القوات الإنجليزية تقف في كل مكان ، وفي يدها السلاح الأعمى ، وأخذ الرجال يتوافدون من كل أنحاء القاهرة ، والطوفان لا يعرف العوائق والسدود .. والطوفان يبحث عن ثغرة يحاول توسيعها والنفوذ منها ، قد ينحرف يميناً أو يساراً لكنه يسير ويأبى إلى بلوغ غايته ، وهكذا تسلل الأحرار من الأزقة الخلفية ، ووثبوا من المنازل المجاورة ، واجتمع الشمل، وهدرت الصيحات العالية ، إنه زئير الطوفان الذي لا يخاف ،

وخرجت الجموع هاتفة بالنداء الخالد، الكتل البشرية تتحرك وكأنها جسد واحد وقلب واحد وعقل واحد .. « الاستقلال التام .. أو الموت الزؤام .. الحرية .. الحرية .. يسقط الاستعمار .. مرحباً بالموت في سبيل الوطن » .

لكن الرصاصات الطائشة تنساب إلى الجسد الكبير .. الجسد الواحد ، ومع ذلك فهو يسير ، والدم الأحمر يرسم الرموز والحروف على الأرض الطاهرة ولا يقف الطوفان ، ويهرول الناس من الشوارع الجانبية والأزقة والحارات ، وأطفال كثيرون جداً يتعلقون بأذيال الموكب ، قد لا يعرفون إلى أين يسيرون ، لكنهم منطلقون مع الزحف الكبير ، وينموا الجسد الكبير .. خليط غريب من لابسي العمائم والطرابيش والطواقي والقبعات أيضاً .. والجميع يتواصون ، ألا يحيلوا الزحف المقدس إلى فوضى وتخريب ، ويلتقي الوافدون من بولاق والحسينية مع القادمين من الجيزة والسيدة زينب وطولون وعابدين ومختلف الأحياء، هذا الموكب الشعبي السلمي أقوى من مليون طلقة ، وأخطر من مائة معركة حربية كبرى من معارك الحرب،وصاح القائد الإنجليزي:

— أطلقوا الرصاص .

فينطلق الرصاص.. وقتلى مجهولون يسقطون مضرجين بدمائهم. لكن الموقف لا يتغير والطوفان لا يقف لأنه لا يعرف الوقوف.. أهم ميزاته الحركة الدائمة الدائبة .

ـ أطلقوا الرصاص ..

فينطلق الرصاص .. آه .. الأطفال أيضاً يصرعون .. النساء لم تخطئهم الرصاصات الطائشة الغادرة .. ويرى « أحمد » بعيني رأسه ذلك كله ، فيصرخ : « يسقط الظلم » ، فينبعث من خلفه هدير كالرعد ، هدير يطغى على صوت الرصاص ، وأوامر القيادة الإنجليزية .. إن « سعد باشا » ورفقاءه في « مالطة » .. في المنفى البعيد .. والقرى المجاورة لمحطات السكك الحديدية تحرق وتدمر ، والناس يساقون بالآلاف إلى المعتقلات والسجون ، والشهداء يسقطون ، والإنجليز يرفضون إلغاء الحماية ، والاعتراف بحرية الشعب واستقلاله ، والحكومة شبه مستقلة ، والسلطان « فؤاد » في قصره حيث الدفء والطعام والراحة والنعيم .. وأشياء كثيرة تتغير . لكن الإرادة الشعبية ـ الطوفان ـ تسير مكتسحة كل خوف ووعيد .

ويعود « أحمد شلبي » آخر اليوم بعد أن أفلت من يد الشرطة إلى حجرته ، ويجلس مكدوداً متعباً ليس لديه أدنى رغبة في الطعام ، ويأتي بواب المنزل يقول له :

ـ هذا خطاب باسمك ..

ويشكره « أحمد » .. ثم يفض الغلاف ، ويقرأ :

ـ أخي العزيز أحمد ..

فكرت مليون مرة أن أكتب إليك ، لكن يدي لم تكن تطاوعني ، فما من عرفنا أن تكتب الفتاة لرجل .. ثم إن الكتابة ليست كل شيء ، إن قلبي يحدثني بأنك إنسان كبير نبيل، وأن لي في قلبك منزلة عظيمة، أهو الغرور ، والوهم ؟! لا أدري.. ولكن هكذا تحدثني نفسي .

إنني أكتب إليك الآن ، وقد عمت الثورة أرجاء القطر ، وأخباركم في القاهرة تصلنا باستمرار ، ولا أكتمك أني أخاف عليك ، أنا لا أبخل بالتضحية من أجل وطني، ولا أظنك تبخل بها.. لكن اعذرني يا « أحمد » .. إن الحياة غالية .. وحبنا غال هو الآخر .. ستقول لي إن وطننا أغلى من أي شيء آخر في الحياة .. أنا معك في ذلك ، لكنني أرجوك أن تحافظ على حياتك .. أن تتصرف بحكمة .. يجب أن نقدم تضحياتنا في روية وعقل .. نحن أحوج ما نكون لكل نقطة دم يريقها العدو ..

أحمد ...

إن بنفسي حديثاً أريد أن أفضي به إليك .. قد يكون حديثي عن الحب .. لكنه ليس خارجاً عن معاني الثورة الشاملة .. أشعر يا « أحمد » أنني أتغير يوماً عن يوم .. لم أعد « صابرين » التي تعرفها في السنوات الماضية.. إنني أضيق بالسجن الذي أعيش فيه.. أضيق بالتقاليد القاسية التي أرزح تحت عبئها .. أشعر أن ثورة

أخرى تثور في دماغي . وليس ذلك من الانحراف في شيء .. إنني إنسانة حية ذات كيان يلتهب ومشاعر وأفكار ، إن «قاسم أمين» الذي قرأت له يكتب كلاماً غريباً عن المرأة وحقوقها .. لكنه ليس غريباً بالنسبة لي فإني أحس باستجابة حقيقية لكلمات هذا الرجل .. إنه يطالب بتعليم المرأة ، وهذا حق لا أثر فيه للباطل ، ويطالب باحترام إنسانيتها ومشاعرها .. وإعطائها الحرية للتعبير عن نفسها في حدود الأخلاق المرعية .. وهذا حق أيضاً .. ويريدها أن تحمل جزءاً من التبعة الملقاة على عاتق المجتمع نساء ورجالاً .. لكنني لا أوافق « قاسم أمين » في مسألة السفور .. هذا رأيي .. وبالاختصار فإن هذا الرجل عظيم .. يرسي قواعد ثورة اجتماعية إلى جانب الثورة السياسية كما يقول أحد الذين كتبوا عنه ، وعن مقالاته في الصحف .

أخي أحمد .

يجب أن أكون أنثى حرة متعلمة .

ويجب ألا أساق إلى بيت الزوجية قهراً ، لأعيش مع رجل لم يختره قلبي .. لقد قررت أن أتزوجك أنت .. ولا أتزوج ابن خالي .. ولن استسلم مهما كان الأمر .. إن الذي يعوقني الآن عن مواجهة أبي بالحقيقة ، هو أنه مريض مسن ، والناس مشغولون بالثورة في كل مكان .. ثم إني أحتاج لشجاعة خارقة كي أقول كلمة الحق ..

لكن ربما لو تقدمت لي طالباً يدي من أبي .. فسأجد في نفسي الشجاعة للإقدام على ما أعتزمه .

عزيزي أحمد .

ألم أقل لك إن الثورة شاملة ؟

لا بد من التغيير .. لا بد .. وإلى اللقاء .

« صابرين »

قرأ « أحمد » الخطاب ثلاث مرات ، كان للخطاب دلالات عميقة في ذهنه ، ودهش أكثر إذ يرى « صابرين » تدرك هذه الدلالات وتعيها تماماً ، وتعبر عنها بهذا الوضوح ، وكاد يشك في أن « صابرين » قد لا تكون صاحبة الخطاب .. أو أنها استعانت ببعض الرسائل والكتب القصصية المترجمة عن الأدب الأوربي .. لكنه بعد تفكير عميق أيقن ان « صابرين » طموحة ، وأن ذكاءها غير عادي .. وأن قراءتها الكثيرة في الصحف القديمة والمجلات والكتب .. كان لها أعمق الأثر في هذا التغيير . لم تعد « صابرين » في نظره مجرد فتاة ريفية ساذجة ، وهذا ما ينمى من حبه لها .. وتقديره لشخصيتها ، بل إنه رأى أنها أكثر شجاعة وثورية منه ، لأنه لم يجرؤ على أن يفاتح أباه في أمر زواجه .. ولم يقدم على خطوة شجاعة واحدة لكي يطلب يد الفتاة التي اختارها قلبه دون غيرها ،

وشعر بقليل من السعادة يتسلل عبر جوانحه المحزونة .. وكيف يستشعر السعادة الكاملة ودماء الشهداء لم تجف حتى الآن في شوارع القاهرة وغيرها ، والمآتم في كل حي من الأحياء والمعركة لم تزل مشتعلة الأوار ؟ وقطع عليه عزلته مجيء بعض أصدقائه من مدرسة المهند سخانة ومدرسة الحقوق والمعلمين العليا والقضاء الشرعي .

وجلسوا يحتسون أقداح الشاي ويتحدثون عن الثورة ، وصداها في أنحاء العالم ، وعن مظاهرة النساء في القاهرة .. تلك المظاهرة التي خلدها شاعر النيل « حافظ إبراهيم » في قصيدته التي يقول فيها :

خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهنه
وإذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنه
وإذ الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه

وما أن فرغوا من ذلك حتى قال طالب بمدرسة الحقوق :

ــ لقد بلغتنا أخبار سيئة .. يبدو أن ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سوف يتنكر لتصريحاته عن حرية الشعوب في تقرير مصيرها .

قال « أحمد شلبي » في ضيق :

– وماذا في ذلك ؟

– معناه أن يقر مؤتمر الصلح الحماية على مصر.. معناه أن ينهار ركن من أركان التأييد الدولي المعنوي .

قال « أحمد شلبي » ثائراً :

– ليكن .. الحرية لا تمنح من أية دولة كبرت أم صغرت ، ولكنها تؤخذ أخذاً .. سننال الحرية بدمائنا ونضالنا وأحرارنا ، إنها حقنا ، ولن يغير من ذلك أمريكا ولا مؤتمر الصلح .. لا يهمني تأييد دولة من الدول لنا .. بقدر ما يهمني إيمان شعبنا بحريته .. ومضيه في الطريق الدامي الشائك للحصول عليها .. إن تصريح « ويلسون » وحده لم يمنحنا الحرية .. وبالتالي فإن تنكره لهذا التصريح لن يسلبها منا .. الثورة سائرة في الطريق .

فهز الجميع رؤوسهم موافقين .

ثم أخذوا يتحدثون عن ضرورة سفر بعضهم إلى الأقاليم ، وتزكية روح النضال في الريف ، ومدهم بالمعلومات والمنشورات ، وتوكيداً للصلة الوثيقة بين الثورة في مختلف الأرجاء ، ثم قال «أحمد شلبي » :

- إني موافق على ذلك ، إن سبعين في المائة من أبناء الشعب

يعيشون في الريف . . والريف هو الذي تحمل أعباء الحرب . . أخذوا أقواته وحيواناته ورجاله . . إن ثورة الفلاحين هي أقوى دلالة وأبعد مغزى من أية ثورة أخرى ، ثم من نحن ؟ نحن أبناء هؤلاء الفلاحين ، ونحن الذين نصطلي بنيران الثورة في القاهرة . . ليكن . . لسوف أسافر إلى الغربية ، وأنزل طنطا . . وليذهب كل واحد منـــا إلى جهة من الجهات . نحن على أبواب مذابح كبرى ومحاكمات عسكرية . . وحادث مقتل بعض الجنود الإنجليز في أسيوط ودير مواس وغيرهما سيؤدي إلى عنف بالغ .. ألم تعلموا أنهم قد أحرقوا بعض قرى الجيزة .. واعتدوا على حرمات أهلها .. وقتلوا كثيرين من الدقهلية وغيرها ؟ !

* * *

لم يكن السفر في ذلك الوقت ميسوراً . . بعد أن توقفت القطارات وأصوات التليفونات والبرق ، وأصبحت وسيلة السفر هي الحمير وعربات الكارو والسفن الشراعية ، فرأى « أحمد » أن يسافر عن طريق النيل حتى يصل إلى منطقة زفتي غمر في فرع دمياط.

وعند بلوغه زفتي سمع أخباراً غريبة .

إن زفتي المدينة الصغيرة قد تعلن الجمهورية .

وضحك لأول وهلة.. ضحك لأن السلطان لم يزل حياً يرزق.. والإنجليز بقواتهم يرابطون في أرجاء القصر .. وابتسم قائلا :

ـ إنه حلم جميل أن يأتي يوم الجمهورية . . وإن كان حلماً بعيد المنال .

وفي زفتي التقى بالوافدين من أهل قريته .

وعانق أباه و « الشيخ عنبة » و «أبو المعاطي الشافعي» و غيرهم. و كان عناقه لحضرة « العمدة » عناقاً عاطفياً حاراً .

الفصل الثامن عشر

كانت مظاهرة ضخمة تلك التي قامت في مدينة زفتي من أعمال مديرية الغربية .. ولم يحاول مأمور المركز الجديد ـ اسماعيل بك حمد ـ أن يتعرّض لها.. بل كان يؤيدها بروحه وبسلوكه أيضاً.. إذ أن الرجل كان يؤمن إيماناً عميقاً بعدالة القضية .. وبأحقية الشعب في التعبير عن آرائه .. والمناداة بحريته .. وأندفعت الجماهير يقودها شاب متحمس مثقف اسمه « يوسف الجندي » ولكي تؤمن الثورة على نفسها بادر الرجال بقطع الطرق الحديدية وأسلاك البرق والتليفون المؤدية إلى المدينة على الرغم من الإنذرات العسكرية التي يوجهها جناب القائد العام للقوات البريطانية وكان ضمن المتظاهرين أبناء القرية بما فيهم العمدة و «عبد العزيز شلبي» و«أبو المعاطي» و« الشيخ عنبة » .. وكان « أحمد أفندي شلبي » في مقدمة السائرين ، ومن قادة المظاهرة إلى جانب الشاب الوطني « يوسف الجندي » .. وفي النهاية توجهت المظاهرة إلى المركز ،

ووقف « يوسف الجندي » خطيباً بين هتاف الجماهير وصياحهم .. وأخذ يقول :

– أيها الإخوان .

أريد اليوم أن أوجه إليكم حديثاً هاماً وخطيراً ... وأرجو أن تستمعوا إليّ بآذانكم وبقلوبكم أيضاً . إن الثورة أيها الإخوة المواطنون قد عمت كل الانحاء ، الشعب وحده هو الذي يخوض المعركة اليوم ويضحي بكل مرتخص وغال ، أما السلطان فقد اعتكف في قصره .. لقد انفصل عن الثورة.. لم يعد واحداً منا.. تلك هي الحقيقة المرة .. والحكومة شبه مستقيلة . لقد استقال رئيسها « رشدي باشا » تضامناً مع الشعب،ولكن السلطان يسوف في قبول الاستقالة .. نحن الآن أيها الإخوان بلا حكومة .. بلا سلطان .. الحاكم الأوحد هو القوة الإنجليزية .. والإنجليز ليسوا سلطة شرعية .. ويأبون أن يكون لنا سلطة شرعية .. فلا نواب عن الأمة ، ولا وزراء حقيقيين ، والسلطان وجوده كعدمه .. الأمر إذن فوضى.. وأراني مضطراً الآن أن أعلن باسمكم استقلال زفتي .. وقيام الجمهورية أرقى نظم الحكم وأعدلها .

وما أن بلغ هذا الحد من الحديث حتى ضجت الجماهير بالهتاف.. معلنة سخطها على السلطان والإنجليز .. مؤيدة قيام الجمهورية .. وهمس العمدة وسط الضجيج :

– إنها خطوة خطيرة .

وقال « عبد العزيز شلبي » :

– إنه انقلاب لا تقل عقوبته عن الإعدام .

أما « الشيخ عنبة » فقد قال :

– لكنه الحق الذي لا حق بعده ، وليكن ما يكون .

واستطرد الشاب الخطيب « يوسف الجندي » قائلًا :

– الجمهورية معناها أن يختار الشعب الحاكم الكفء .. وأن يبارك خطواته إذا أصاب .. ويحاسبه إذا أخطأ .. معناها العدالة الاجتماعية والسياسية الشاملة . فهل توافقون ؟

وعاد الهتاف والضجيج .

وأسرع « أحمد شلبي » بالوقوف إلى جوار الخطيب..واندفع قائلًا :

– باسم هذه الجماهير أبايعك..وأقف إلى جوارك حتى الموت.

ثم مد يده مصافحاً .. وتسابقت الجماهير إلى الخطيب الشاب الذي أعلن الجمهورية محيية مبايعة . ثم اندفع الجندي صوب العلم وصعد الدرج وأنزله ووضع مكانه علماً آخر وسط تصفيق الجماهير وهتافهم ، كما أعلن تكوين مجلس شورى له السلطة التنفيذية والتشريعية ليحكم المدينة .. تحت إشراف مأمور المركز « اسماعيل بك حمد » .. وكان « أحمد شلبي » ضمن هذا المجلس.

* * *



وكان أحمد شلبي جالساً يرتب أوراقه ويصحح ما فيها من أخطاء .. إنه يريد أن يصدر العدد الأول من جريدة الجمهور .

كان الليل حالكاً ، وكانت مدينة زفتي شبه نائمة .. لكن مطابعة « عجينة » المعروفة . . تتدفق منها الأضواء . . وآلاتها تدور في دأب وصبر . . ولا يبدو في عيون العمال أو رئيسهم أثر للنوم ، وكان « أحمد شلبي » جالساً يرتب أوراقه ، ويصحح ما فيها من أخطاء ، أو يمسك ورقة بيضاء ويسطر فيها ما يمليه عليه فكره . . إنه يريد أن يصدر العدد الأول من جريدة « الجمهور » بسرعة وباتقان أيضاً ، والعدد الأول مليء .. فيه المقالات الوطنية ، وفيه تحليل للقضية الوطنية وشرح واف لها ، وفيه توجيهات للجماهير الثائرة .. توجيه بحماية الأجانب .. واتحاد الطوائف والاتجاهات المختلفة ، وتآخي المسلمين والمسيحيين من أجل الوطن .. كما شمل العدد الأول أيضاً عدداً من الأوامر والتشريعات مثل نظام جمع العوائد والضرائب .. وكذلك المشروعات المزمع تنفيذها مثل تشغيل العاطلين .. وردم البرك والمستنقعات وتشجيع بعض المشروعات الصناعية الصغيرة .

وما كاد « أحمد » ينتهي من تنسيق كل شيء حسبما اتفق مع « يوسف الجندي » ، حتى ارتمى مجهداً على كرسي خشبي متهالك ، ورجا صاحب المطبعة أن يعد له قدحاً من الشاي .. لكن الشيخ « عنبة » دخل فجأة يحمل في يده مقالاً قصيراً بعنوان « خطورة ثورية أخرى » .. وذهل « أحمد أفندي شلبي » وهو يقرأ كلمات الشيخ .. وأخذ يرفع صوته وهو يقرأ :

« إننا في مسيس الحاجة إلى ثورة اقتصادية .. أجل .. لن

يتحرر الشعب إلا إذا ضمن أرزاقه .. وأعيد توزيع الثروة توزيعاً عادلاً .. إن أمراء البيت السلطاني يملكون أغلب الأراضي الزراعية. وكذلك الباشوات وبعض الأجانب المستغلين .. فلماذا لا نعطي الفلاح المعدم فداناً أو فدانين من هذه الأرض على أن يدفع أثمانها على أقساط طويلة ؟! لماذا لا نحدد إيجارات الأرض .. ونحمي الفلاحين من استغلال الملاك ؟! ثم لماذا لا نفرض الرقابة على كبار التجار الذين يستغلون الظروف..ويرفعون أثمان الحاجات بلا مبرر ؟

وتوقف « أحمد » عن القراءة .. كان قلبه يدق .. كان حائراً بين جدية الأحلام التي تنتعش في قلب « الشيخ عنبة » وبين الواقع المر الأليم .. الكلمات جميلة وقد تكون عادلة .. لكن « أحمد » يرفضها .. يرفضها دون أن يدري سبباً لذلك ، ولعل السبب هو أن الثروة هكذا كانت ، ولم يحاول أحد من قبل — أو بتعبير أدق — لم يجرؤ أحد على التفكير في إعادة توزيعها .

وقال « أحمد » للشيخ « عنبة » :

ـ هذا كلام خطير ، ومخالف للدستور .

فقال « عنبة » ساخراً :

ـ والجمهورية التي أعلنتموها أيضاً خطيرة ومخالفة للدستور .

ـ لكن . .

- لكن ماذا يا ولدي ؟ .. هذا هو الإصلاح الحقيقي إن أردت إصلاحاً .

وصمت « أحمد » برهة ثم قال :

- معنى ذلك أن ينشق الشعب على نفسه .. أن يعادينا الباشوات والبكوات وكبار الملاك والأجانب .. وسيكون ذلك تكأة لتدخل أعنف من القوات الإنجليزية .. إن ما تدعو إليه معركة أخرى أكبر وأخطر من المعركة السياسية التي يخوض غمارها الشعب .. إن هذا الكلام معناه فشل أكيد للثورة .. أنت تسبق الأحداث يا شيخ « عنبة » .. ونحن لا نستطيع أن نصعد السلم دفعة واحدة ..

- كنت واثقاً ألا أجد من يفهمني .

- قيامنا بأي إصلاح اجتماعي أو اقتصادي في ظل الاستعمار أمر شبه مستحيل .

فتمتم « الشيخ عنبة » قائلاً :

- يقول حبيبي إن الـ ....

فقاطعه « أحمد » قائلاً :

- لسوف أذهب بالمقالة للأستاذ « يوسف جندي » وأعرضها عليه .

وعاد « أحمد » بعد دقائق ، ثم قدم المقالة للشيخ « عنبة » .. فقرأ في رأس الصفحة بالحبر الأحمر « اقتراح جميل ، لكن لاداعي لنشره لأسباب عدة » .

وبان الضيق في عيني « الشيخ عنبة » وأخذ يردد :

— كيف يكون جميلًا ولا تنشرونه ؟! إن رأسي يدور .. ما هي الأسباب ؟! أريد أن أعرف .. ألم يحدث شيء مثل هذا في روسيا القيصرية منذ عامين ؟! ألم يستول « محمد علي » على الأرض وجعلها ملكاً خاصاً له، وأعاد توزيعها بطريقته وإن كانت جائرة.. على الفلاحين المساكين ؟! ليس هناك مالك سوى الله .. ونحن مستخلفون في مال الله .. والحاكم له الحق أن يعيد توزيع الثروة وينظمها بالعدل متى رأى ذلك في صالح الشعب .. لكن .. لكني مؤمن بكل حرف كتبته ، وستظل ثورتنا ناقصة مالم ترع هذا الجانب الهام.. والدنيا تتغير يا « أحمد أفندي »،من يدري؟! قد يأتي يوم ترى فيه أفكاري النور .. آه لو كان يطاع لقصير أمر !!

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

لكن آلات الطباعة تدور في عنف ، و« أحمد » مشغول بالتصحيح والمراجعة، والعمال يسيل عرقهم،برغم برودة الجو،و«الشيخ

عنبة » يطوي ورقته ، ويضعها في جيبه آسفاً ، و« أحمد شلبي » ينظر إليه في أسى ويقول :

– لم يأت دور مقالتك بعد ..

– ومتى يكون ذلك ؟ ..

– بعد شهر .. بعد سنة .. بعد أربعين سنة .. الله أعلم ...

ولأول مرة يخرج « عنبة » عن طوره ، ويرمق « أحمد » بنظرات حديدية غاضبة ، ويصرخ :

– يقول حبيبي : شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ، ويسكت العاقل .

فيبتسم « أحمد » ويقول :

– الله يسامحك يا شيخ « عنبة » .. لكل الناس أحلام وأماني .. لكن .. آه .. اليد قصيرة ، والعين بصيرة .. وربنا يسترها معنا ..

وخرج « الشيخ عنبة » .

وبقي « أحمد » ساهراً ..

غداً تصدر جريدة « الجمهور » .

غداً تصدر في « زفتي » أول جريدة حرة لا تأخذ الإعانات من

السراي أو الإنجليز .. ولا تكتب الأخبار الكاذبة .. ولا تبيع نفسها لحزب من الأحزاب ، أو أمير من الأمراء ، أو باشا من الباشاوات .

غداً تصدر أول صحيفة حرة بكل معنى الكلمة ، وفي صدرها إعلان جمهورية « زفتي » ..

وأغفى وهو مضطجع على الكرسي ، لم يزعجه ضجيج الماكينات . ولم يصح إلا على صوت « الشيخ عجينة » صاحب المطبعة يقول له :

– انظر .. لقد ولدت جريدتنا الحرة مع مشرق الشمس .

الفصل التاسع عشر

كان « العمدة » مضطجعاً على سريره هادئاً، ووقفت «صابرين» منحنية على منضدة خشبية تعد له كوباً من عصير الليمون ، وأضواء « لمبة الجاز » تنعكس على محياها الوردي فتزيد من فتنتها، وضفيرة ترتمي على صدرها الناهد توحي بأن « صابرين » قد تغيرت تماماً ، وتمتم أبوها :

– فيم كنت تقرئين ؟

– وصلتني جريدة الجمهور .. إنها جميلة وإن كانت ناقصة .

– ما وجه النقص فيها ؟ إنها جريدة محلية صغيرة .. ثم إنها تجربة .. مجرد تجربة .

قالت « صابرين » .. وهي تلقي بعيداً ببقايا ليمونة إلى سلة مهملات :

ـ ليس فيها شيء عن المرأة .. ليتهم يعيدون كتابة مقالات « قاسم أمين » فيها .

قال أبوها في اعتراض :

ـ أعوذ بالله .. إنه رجل خارج على الدين .

ـ من قال ذلك يا أبي ؟ نحن نظلمه .

ـ يا ابنتي .. الحريم للبيت .. ولخدمة أزواجهن وأولادهن ولا شيء غير ذلك .

قالت « صابرين » :

ـ ثلاثة أرباع نساء القرية يذهبن للعمل في الغيط .

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ أعني أن الغيط كالمدرسة .. كالدواوين .. فكيف نصرح للمرأة بالذهاب إلى الغيط ولا نسمح لها بأن تتعلم أو تتوظف

ومع قوة حجتها ووضوحها إلا أن أباها راوغ قائلاً :

ـ لقد درجنا على أن المرأة للبيت .. والتعليم لا يزيدها إلا خلاعة وتحرراً .. ألم تسمعي عن الفضائح التي يرتكبها نساء الإفرنج المتبرجات ؟

ولم يكن هناك جدوى من مناقشة أبيها .. فلأبيها رأيه الذي لا يحيد عنه .. وتقاليده العتيقة التي لا يمكنه أن يتنكر لها ، وهي ترى أن « قاسم أمين » رجل متطور ينصف المرأة ، ويدافع عن

قضيتها وأغلب آرائه لا تتناقض مع الدين ، ولا تخرج عن دائرة التربية الإسلامية .

وتذكرت « صابرين » آنذاك مشكلتها الخاصة ، كم مرة فكرت في أن تواجه أباها .. وأن تعبر له بصدق عن مشاعرها .. لكنه مجرد هواجس سرعان ما تذوب إذا ما طلعت الشمس ، أو التقت عيناها بعيني والدها الصارم المحافظ .. لكن الظروف مواتية الآن ، وليس معها أحد ، وأمها مشغولة عنها .. واقتربت « صابرين » من أبيها .. لسوف تستجمع شجاعتها كلها هذه المرة ، وتناقش أباها في الأمر ، فإن فشلت في إقناعه فلتعتبر الموقف متجمداً لم يطرأ عليه أدنى تغيير .. وإن وهبها الله النجاح ، فذلك غاية المنى .. إن الأمور الكبيرة ، أو المشاكل المستعصية لا تحل إلا بكثير من الشجاعة والحزم .. وقالت « صابرين » فجأة وكل جسدها ينتفض :

ـ أبي .

وخفضت رأسها .. بينما قال أبوها :

ـ ماذا ؟

ـ إنه لأمر شائك .

فضحك الرجل قائلاً :

ـ لا بد وأنه موضوع الزواج .. أعرف أن ابن خالك

متعجل .. وقد تكونين أنت الأخرى استبطأت خطواتي .. لكن ثقي أن الأمر سيتم بسرعة .. وعلى صورة ترضيك وترضيه هــو الآخر .

قالت بعد أن زمت شفتيها :

ـ ما قصدت ذلك يا أبي .

ـ ماذا إذن ؟

وألقت بكلماتها كالقنبلة :

ـ أنا لا أريد أن أتزوجه .

وانتفض أبوها جالساً .. وقال وهو يرمقها بنظرات حائرة :

ـ لعلك تمزحين .

ـ أنا أعي ما أقول .. لا أريد أن أتزوجه .

ـ أنت ؟ من أنت ؟ هل جننت يا « صابرين »؟ هذه أول حادثة من نوعها في أسرتنا .

قالت وقد احتقن وجهها :

ـ أنا ابنتك .. أنا إنسانة أحس .. ألم يقل الشرع أن على ولي الأمر أن يأخذ رأي الفتاة في موضوع زواجها ؟

فهز العمدة رأسه في سخرية ، وتمتم :

ـ جميل .. جميل .. خزعبلات ملأت بها رأسك من الكتب

والمجلات الخليعة .. هذه هي نتيجة مبادىء « قاسم أمين » ومن على شاكلته .. ألا فاسمعي يا عزيزتي الجميلة .. ستتزوجين ابن خالك على الرغم منك .. ستتزوجينه لأن أباك قال ذلك ، كلمتي كلمة رجل ، وقد أعلنتها على الملأ . أتريدين أن تمرغي شرف أبيك وكرامته في التراب ؟ يا للعار !

كان أبوها ينتفض .. ويده ترتعش وكوب العصير توشك أن تبلل أكمامه وملاءة السرير ، وكانت « صابرين » تكتم دموعها ، وتحبس شهقاتها .. وتمتمت « صابرين » :

ـ كنت أحسبني أطالب بحقي الشرعي .. من أبي الذي يحبني ويرجو لي السعادة .

فقال ثائراً :

ـ الشرع أنا الذي أعرفه لا أنت .. وسعادتك أعرف أين تكون .. أنت طائشة ، تعيشين في عالم من الخزعبلات والبدع .. لم تقولي لي ، بمن تريدين إذن الزواج ؟ إنها مسألة تهمني أيضاً .. يجب أن أعرف حتى أطمئن على مصيرك .. ومن يدري ؟ قد أنحاز إلى صفك .

فأغضت برأسها وهمست :

ـ أمي تعرف .

ـ ثم تخفي عني ، هذا جميل .. يا للخيبة الشاملة التي انتابتك أنت وأمك .. لكنك أنت أيضاً تعرفين .

ولعبت بها الحيرة ، واستبد الخوف بقلبها المعذب .. لكنها فرصتها الأخيرة .. لماذا لا تلقي الضوء الكاشف على الأمر كله ؟ لهذا اندفعت قائلة :

ـ أحمد أفندي شلبي .

فشهق قائلاً :

ـ أحمد ؟ هذا الذي كنت أحسبه من أولياء الله الصالحين ؟ كيف عرفت ذلك ؟ خبريني .. إنني أعيش هنا مغفلاً . تكلمي يا بنت « خلاف عبد المتجلي » الرجل المحترم .

قالت متلعثمة :

ـ لم آت منكراً ، ولم أرتكب ما يجرح كرامتنا .. نحن أشراف .. وسنبقى أشرافاً طول حياتنا .

ـ لم تجيبي على سؤالي .. كيف حدث هذا ؟

فاعتصمت بالصمت .. لم تر فائدة تذكر من صدقها وتعبيرها المخلص عن حقيقة أفكارها ومشاعرها ، وأبوها رجل صلب لا ينثني عن معتقداته وإن كانت خاطئة ، ونظر إليها أبوها في غيظ ، وتمنى في هذه اللحظات أن ينقض على عنقها ويعتصره اعتصاراً ، وكاد يجن جنونه . فقذف بكوب الليمون في وجهها ، وصرخ :

أخرجي من أمامي يا عاهرة .. أخرجي .. ؟

عندما انفرد الزوج بزوجه في وقت متأخر من الليل طرحا

الموضوع على بساط البحث ، تناولاه من كل زواياه . والتقت وجهات نظرهما عند عدة نقط .. أولاها أن « صابرين » .. مخطئة وقليلة الأدب إذ أنها كشفت برقع الحياء ، وتكلمت بوقاحة . والثانية أن العمدة لا يصح أن يتنكر للوعد الذي قطعه على نفسه بتزويج ابنته من ابن خالها .. والثالثة أن «أحمد افندي» شاب ممتاز لا شك في ذلك، وأنه يرجح على ابن الخال في ثقافته ومركزه وسمعته. لكن لا جدوى من هذا كله .. وأخيراً قال العمدة :

ـ أراك في صف ابنتك مع ذلك .. ويدهشني أنك تفضلين أحمد على ابن أخيك .

ـ الحق معك .. لكن زوجة أخي امرأة سيئة .. ومصلحة ابنتي فوق كل اعتبار . والأمر لك أولاً وأخيراً يا خلاف .

كان العمدة حاسماً في كلماته .. لكنه ـ بينه وبين نفسه ـ وقع في حيرة قاتلة .. وقلق بالغ . إن كلمات ابنته قد بلغت أعماقه .. واقتنع بها ضميره ، وإن تظاهر بخلاف ذلك .. وبدت له « صابرين » في صورة الفتاة المعذبة البائسة .. ثم إنه يحب « أحمد افندي » ويحترمه .. ويعتبره أنموذجاً فذاً للشاب الصالح المجتهد النبيل .. وهل يستطيع أن ينسى سيرته العطرة بين الشباب .. وقيامه بمعاونته والسهر على راحته وهو لدى الطبيب بالقاهرة .. ثم ذلك الموقف الرائع الذي وقفه بالأمس وثورة زفتي ؟ لقد تمنى آنذاك أن يكون له ابن مثل أحمد .. بل إنه احتضن « عبد العزيز شلبي » مهنئاً على التوفيق والشجاعة التي وهبها الله لابنه .

ومع ذلك فقد هدر في وجه زوجه :

ـ لا أستطيع .. لا أستطيع .. لقد أعطيته كلمة.. والناس يعرفون من أنا عندما أتكلم .

قالت زوجه ضائقة :

ـ دائماً الناس .. الناس .. إنه أمر يتعلق بابنتك وقبولها .

فقهقه قائلًا :

ـ هذه هي الكارثة .. يقول النـــاس إن « صابرين » أخلفت وعد أبيها .. ونفذت رغباتها رغم أنفه .. آه .. لقد أصبحت في آخريات أيامي ، ويجب أن أموت دون ضجيج .. لا يصح أن أمضي إلى قبري ومعي فضيحة.. « صابرين » ستتزوج ابن أخيك.. ويجب أن تشكريني على ذلك ..

حاول أن ينام .

إن روحه تتعذب .

كان دائماً يحضر لصابرين ما تريد من طعام وشراب وملبس .. رغباتها دائماً مجابة .. ولأول مرة في حياته يمتنع عن تلبيـة رغبتها في الزواج من « أحمد ».. لقد منحها أشياء كثيرة طول حياته .. لكنه اليوم يحرمها شيئاً كبيراً .. يعدل كل ما فات من أمنيات ..

إن عذابه الأكبر سببه أن ابنته على حق .. وأنـــه يقف في طريقها من أجل أوضاع اجتماعية ألفها ردحاً طويلًا من الزمن .

وحاول أن ينام .

لكن كيف ينام ؟

وقال وهو بين اليقظة والمنام :

– الثورة في كل مكان .. لقد أعلنت زفتي الجمهورية . والثورة هنا في بيتي .. وصابرين تريد هي الأخرى أن تعلن الجمهوريـة .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وهتفت زوجته في استغراب :

– ماذا تقول ؟

لكنه لم يجب .

وانبعث غطيطه خافتاً رتيباً .

وهمهمت وهي تعطيه ظهرها :

– الرجل يهذي .

الفصل العشرون

حقاً إن الظروف لم تكن مواتية في هذه الأثناء للحديث عن الزواج ، وكان أحمد مشغولا ـ معظم وقته ـ بالثورة وتنظيماتها .. لكن الظروف كانت أقوى منه ، وكان لا بد أن يتصرف بسرعة ، ففكر في الاتصال مرة ثانية بالشيخ « عنبة » ، لكي يتفاهم مع والده في أمر الزواج أولا ، ثم يتقدم لحضرة العمدة كي يناقش معه الأمر .. لأنه يعلم أن « صابرين » مخطوبة لابن خالها ، فالمسألة إذن شائكة ، وتحتاج لمزيد من الحرص والدقة . . حتى لا يوقع العمدة في ورطة ، ولكي لا يجرح إحساس ابن الخال .. وفكر « أحمد » في ترك الأمر كلية تجنباً لهذه المشاكل كلها ، لكنه عاد وتذكر أن « صابرين » ـ وهي صاحبة الشأن ـ ترفض الزواج من ابن خالها ، وأنه هو الآخر « أحمد » يرغب في الزواج منها رغبة جارفة .. تستولي على كل مشاعره وأفكاره كان يؤمن أنه و« صابرين » على حق ، والحق فوق كل اعتبار ، ولا يمكن أن

يقرر أن « صابرين » تعامل كسلعة تباع وتشترى دون أن يكون لها أقل رأي في مصيرها .

واقتنع « عنبة » لكنه كان مدركاً حرج الموقف ، ووقع هو الآخر في حيرة بالغة .. لكن « أحمد » قال له :

ـ إن « صابرين » قد بلغت سن الرشد ، يمكنها أن تملي إرادتها بطريقة حاسمة .. لكنها لا تود أن تؤذي مشاعر أبيها .

فسدد إليه « عنبة » نظرات فاحصة قائلاً :

ـ هذا منطق تهديد ..

ـ لكنه حق .. وأرجو ألا تفكر بعقلية شيخ قد تخطى الستين .. بل عالج الأمر متصوراً أنك في أوائل العقد الثالث من عمرك .. ثم إنك يا شيخ « عنبة » لم تجرب الزواج من قبل .. أليس كذلك ؟

فهمس « الشيخ عنبة » :

ـ أتنكر عليّ ذلك ؟! يقول حبيبي : أما الزواج بالجارية الحسناء .. فما أنا بالكفء لها .

ـ لكنك تستطيع الزواج من أرملة في الخمسين .

ـ أوه .. لقد فات الأوان .

ـ لكنه لم يفت بالنسبة لي على الأقل .

ـ معك حق ..

كان « عنبة » صريحاً في حديثه مـــع العمدة ، كما كان مقدراً لـكافة الظروف والاحتمالات، واعترف بحرج العمدة ودقة موقفه، ثم قال :

ـ السؤال الهام : ألديك اعتراض على « أحمد أفندي » ؟

ـ مستحيل .. ولكن لماذا لم يتقدم من قبل ؟!

ـ لا داعي للعتاب ، ولنفكر في حل ..

ـ أجل .. أي حل لا يؤثر على كرامتي .. أو يجرح كبرياء الآخرين ..

فهز « عنبة » رأسه قائلا :

ـ لا بد من التضحية .. ومستحيل أن يأتي الحل بدون ذلك .

ـ أستطيع أن أضحي بنفسي .. أما كرامتي فلا .

ـ هناك طريق وسط يا عمدة .

ـ ما هو ؟!

ـ تأجيل أمر عقد القران أولاً .

ـ ما زلنا في حاجة إلى الحل .. التأجيل ليس حلًا .

ـ لكنه يعطي الفرصة لمزيد من التفكير والتروي ، وقد يقدم القدر الحل الذي نريد من حيث لا نشعر .

وفي قريتنا لا يظل سر من الأسرار طي الكتمان فترة طويلة ..

قد يستطيع الرجال أن يغلقوا أفواههم ، لكن النساء غير ذلك ..
إنهن يعشقن الثرثرة .. ويطلقن لخيالهن العنان .. ويخترعن
الحكايات والتفاصيل ، والحقيقة أن تبادل الزيارات بين بيتي العمدة
و « عبد العزيز شلبي » قد ازداد معدله •• بصورة ملفتة للنظر ••
ولم يكن هناك مناص من أن يتحدث النسوة في أمر الزواج ولا
بد أن الخادمات يحاولن جاهدات أن يتلقفن الأنباء المثيرة••ويمشين
بها بين الناس في أنحاء القرية .. ثم إن « صابرين » قد فضح ما
يخفيه قلبها من أسرار •• لم تفكر مرة أن ترسل منديلاً هدية إلى
خطيبها •• ولم تبعث إليه بزجاجة من العطر •• وإذا ما أرسل إليها
خطيبها هدية من الهدايا تجاهلتها•• أو رمت بها في ركن من أركان
صيوان ملابسها •• دون اكتراث•• وكان استقبالها لأهل العريس
« وهم أخوالها » استقبالا فاتراً . • لا يحمل سوى الرفض والضيق
والتبرم .. ولم يفت هذا على أهل العريس .. لقد أدركوه بداهة..
لكنهم أقنعوا أنفسهم بأن هذا الأمر لا قيمة له . . إن رضا أبيها
« حضرة العمدة » فيه الكفاية .. وليس « لصابرين » رأي أو تأثير
في الأمر .

لكن الموقف تغير . . لقد ظهر رجل جديد . . له وزنه
واعتباره . . رجل يستطيع أن يرفع رأسه . . وأن يتفوق على
الخطيب المعروف ، وسارت الشائعات في كل مكان ، وتحول
تجاهل العريس ـ ابن الخال ـ إلى قلق ، والضيق أصبح غضباً ،
وفكروا أن يقصدوا حضرة « العمدة » ، ويشرحوا له الأمر ،

ثم يطلبو منه الوفاء بوعده ، وإتمام القران على الفور . . وخاصة أنه ليس هناك ما يمنع .

لكن حدثاً خطيراً هز أرجاء القرية .. فغطى على كل شيء ما عداه .. لقد ذهب « أحمد » إلى طنطا لمعاودة الاتصال بالثوار هناك .. وإطلاعهم على جريدة « الجمهور » وآخر التطورات في زفتي .. واشترك في مظاهرة ضخمة خرجت من المدرسة الثانوية ، والتقت بطلاب « الجامع الأحمدي » ، واتجهت – سلمية – صوب المحطة .. فانضم إليها عدد ضخم من الأهالي يهتفون بالحرية والاستقلال . وإلغاء الحماية البريطانية على مصر .

لكن كيف يسكت الجنود الإنجليز المرابطون بالمحطة .. وهم يستمعون إلى هتافات الحرية والاستقلال ؟ لقد أثبتوا طوال أيام أنهم أعداء الحياة والحرية .. وأنهم يدوسون على كل القيم الشريفة فداء لإمبراطوريتهم الضخمة .. ومجدهم الحربي .. واستغلالهم المادي الصرف لشعوب العالم .

والقصة مكررة معادة . . رصاصات غادرة تنطلق على المتظاهرين .. فيسقطون مضرجين بدمائهم ، ومئات يساقون إلى السجون.. المكتظة بالأحرار ..ومعاملة قاسية تأنف منها الحيوانات فما بالك بالإنسان الذي يشعر ويتألم ! ووقف « أحمد » مذهولاً والرصاصات تتطاير يميناً ويساراً وفوق رأسه .. وشعر بيد تقبض على ذراعه ، وتجره إلى الخلف .. وسمع صوتاً يقول :

– هل جننت ؟! أنت تنتحر .. كيف تبيح لنفسك الوقوف هكذا في وجه الرصاص الطائش ؟.

ونظر إلى المتحدث .. وكان « الشيخ عنبة » .. وصرخ « الشيخ عنبة » قائلًا :

– أنت شاحب الوجه ، تكاد يغمي عليك .. ماذا ؟ هل أصبت ؟

كان خيط من دماء يتسرب أسفل سرواله .. ويتلوى على الأرض .. واستند « أحمد » على كتف « الشيخ » العجوز .. الذي زحف به الى زقاق قريب ، ثم كشف عن ساقه .. فوجد أن رصاصةقد استقرت في جانب الفخذ الأيسر من الجهة الخارجية.

- أنت في حاجة الى إسعاف سريع .

- خذ هذا المنديل وأحكم رباطها جيداً حتى يتوقف النزيف.. إني سعيد .. لو مت الآن . . لكنت أسعد البشر . . ماذا ؟ الناس يموتون كل يوم .. عشرات منهم يموتون دون أن يعرف أحد لهم إسماً .. أنظر إلى ميدان المحطة .. إن عدداً كبيراً يئن وينزف دون أن يجرؤ أحد على إسعافهم . . لأن من يذهب إليهم سوف يرقد إلى جوارهم . . آه . . أشعر بدوار . . هذا هو السلام . . السلام الذي يتحدث عنه « ويلسون » ومؤتمر الصلح .. وأبطال الحرب العالمية الكبرى .

فقال « عنبة » وقد ارتسم القلق على وجهه :

ـ لتكف عن الحديث .. لا جدوى من ذلك .. لسوف أنقلك إلى طبيب خاص أعرفه .. ويعرف والدك .

فصرخ أحمد أفندي :

ـ مستحيل .. لسوف أذهب مع باقي الجرحى والقتلى إلى المستشفى الأميري .. إن معركتنا واحدة .. ومصيرنا واحد .. لن أتميز على أحد، سأرقد إلى جوارهم، وأستمع إلى أناتهم وآهاتهم .. وأرى دماءهم النازفة .. إنه شيء مرعب حقاً .. لكني سأسعد فيه .. سأتلقى فيه دروساً لن أنساها طول حياتي .. لسوف ترتسم في مخيلتي دائماً وحشية هؤلاء الحيوانات أعداء الحياة .. سأظل أكرههم .. وأكرههم .. وأعلم أولادي حكاية أعداء الحياة .

وفي المستشفى الأميري كان الجو مكفهراً حزيناً .. والموتى يرقدون ترف حولهم دموع غالية كثيرة .. وأخذ « أحمد » بعد أن أستخرجت رصاصته ، وأصبح في حالة جيدة .. يتصفح الوجوه الشاحبة النائمة إلى الأبد .. ثم وقعت عيناه على شخص بعينه .. كان شاباً صغيراً لا يتجاوز الخامسة عشرة ، يلبس عمامة قد تلوث شالها الأبيض بالدم ، ويلبس « كاكولة » من قماش رخيص لم تسلم هي الأخرى من بقع الدم الحمراء .. وصرخ كالمجنون :

ـ أبو الذهب .

وارتمى عليه يقبله ويحتضنه .. ويبلل وجهه الشاحب بالدموع .. كان « أبو الذهب » طالباً أزهرياً من قريتنا ، أبوه ذهب مع العمال بأمر السلطات إلى بعيد ، ولم يعد ، وكانت أمه « الحاجة فاطمة زيدان » ليس لها غيره بعد أن ذهب أبوه .. كانت تبيع « محلول القطرة » لأصحاب العيون المريضة مقابل ملاليم ، ومن هذه الملاليم تنفق على نفسها ، وعلى ولدها في « الجامع الأحمدي » .

وشعر « أحمد » بيد تربت على كتفه في حنان، ونظر وعيناه ممتلئتان بالدموع .. كان الطبيب يقف قبالته :

– هل تعرفه ..؟!

قال « أحمد » وهو يجفف دموعه :

– أجل واحد من قريتنا .

– كان ضمن المجهولين .. وكنا سننقله إلى مقابر الصدقة الآن .

* * *

وفوجئت القريه بعودة فتاها الشهيد « أبو الذهب » وخرجت عن بكرة أبيها تشيعه إلى مقره الأخير ، والدموع على كل خد .. حتى « الخواجه يني » كان في مقدمة المشيعين ، وكان « أحمد » يسير متكئاً على كتف أحد الرجال .

وكانت أم الشهيد تصرخ من آن لآخر صرخـــة تمزق نياط القلوب قائلة :

ــ ولدي ..

فتثور في النفوس مشاعر مريرة مشوبة بالغيظ،ويصر « أحمد » على أسنانه .. ويكظم أساه .. ويهز الشيـخ « عبد العزيز شلبي » رأسه قائلًا : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ، ويتذكر أن ابنـة كان معرضاً للموت.. فيغوص قلبه رعباً ، وإشفاقاً من هول المصير الذي كان يمكن أن يتلقاه وحيده ، وفكر عشرات المرات وهو يسير في الجنازة مطأطىء الرأس .. أن يحبس ولده في البيت ولا يتركه يخرج مرة أخرى في هذه الأجواء العاصفة ، وكفى ما قام به من أعمال وما تعرض له من مخاطر ، لكنه يعود ويخجل من أفـكاره تلك .. إذ لو فعل كل واحد ما يفكر فيه ، لما قامت الثورة ولمـا سقط الشهداء ، ولما تقدمت القضية الوطنية خطوة واحـــدة إلى الأمام .. إن لكل شيء ثمناً، وثمن الحرية التضحيات ، والأعمار بيد الله .. ولن يموت ولده ناقص عمر ، فليترك الأمر لله .. وليكتف بتحذير ابنـه كي يعتصم بالحرص والتعقل .. ويفيق الشيـخ « عبد العزيز » على صوت والدة الشهيد وهي تردد الكلمة التي لا تردد سواها :

ــ ولدي . .

فتنهمر دموعه، وينظر إلى ولده الشاحب المتكىء على جارهمن خلال الدموع ، فيحمد الله أن كتب له النجاة .

وتنام القرية ..

وتشوب أحلامها ذكريات مؤرقة حزينة .

ولا يأتي الصباح إلا ويكون في بيت العمدة مجلس للنظر في موضوع « صابرين » .. لقد جاءت زوجة خالها وابن خالها واجمين مضطربين .. فقد نما إلى سمعها أن « صابرين » قد أتت عملاً شائناً الليلة الماضية إذ هرولت إلى بيت « شلبي » ، واندفعت إلى حجرة « أحمد » كالمجنونة وأخذت تتحسس إصابته أمام الجميع وتبكي.. لم تخجل أو تحتشم والعيون ترمقها .. وكان لا بد أن يكون رأي قاطع في الأمر .. لهذا جاء ابن الخال وأمه .. وطلبا من العمدة تحديد موعد للزواج .

قال العمدة :

ـ أنتم ترون القرية في حداد .

ـ سنراعي شعور الجميع عند الزفاف ، فلن يكون هناك طبل ولا زمر .

قال العمدة في ضيق :

ـ ولماذا لا نصبر ؟!

ـ الصبر مستحيل ..

ـ ما معنى ذلك ؟!

قالها العمدة في دهشة ، فرد العريس المنتظر :

– إنها مسألة تتعلق بالكرامة .. والحديث فيها قد يسيء إليك .

– لا أفهم شيئاً . هذه ألغاز .

قال الشاب في طيش وقد أخرجته الغيرة عن طوره :

– إن سيرة « صابرين » و « أحمد شلبي » على كل لسان .

فهب العمدة واقفاً وصرخ في حدة :

– لو لم تكونا في بيتي لكان لي رد آخر على سوء أدبك .

– أنا لا أنطق إلا بالحق .

– أنت تلوث شرفي بهذه الكلمات .. ثم كيف تقبل على نفسك أن تطلب يد فتاة كهذه .. إما أنك كاذب أو بلا كبرياء، وكلا الأمر مخجل .

فقال الشاب ساهماً :

– معنى ذلك أنك ترفض ؟

– لكن ...

– وكلمتك السابقة ؟

– لم تحترم شعوري .. فكيف أحترم كلمتي مع طائش مثلك يريد أن يوصمنا بالعار .

وطوال الوقت كانت الأم تحاول جاهدة أن توقف تيار المناقشة الحادة .. حتى لا تتطور الأمور إلى أسوأ .. ولكن ولدها كان مدفوعاً بغيرته ولهفته .. إذ كان يحب « صابرين » فعلاً .. وكان العمدة ثائراً من أجل كرامته .. ومستجيباً لدوافع نفسه الدفينة ، ومعبراً عن تلك الرغبـــة الحبيسة .. رغبته في ألا يتم الزواج من ابن الخال .

وقالت الأم منتهزة فترة الصمت والتوتر :

ــ حقك عليّ يا حضرة العمدة .. إن ابني هو ابنك ، ولك أن تؤدبه بالطريقة التي ترضيك .

قال العمدة وقد تصبب عرقه :

ــ لندع الأمر الآن .

فرد الشاب :

ــ نريد موعداً محدداً للزفاف .

قال العمدة :

ــ أنا لا أتلقى أوامر من أحد .

ــ ما جئنا إلا لنصل لتحديد قاطع .

ــ أتريد الرأي القاطع ؟

قال الشاب مرتجفاً :

ــ أجل .

- إذن فثق أني لن أزوجك ابنتي .

وانقضت كلمات العمدة عليها كالصاعقة .. فانصرفا دون أن ينبسا ببنت شفة .

وتمتم العمدة وقد أصبح وحده :

- الحمد لله .

الفصل الحادي والعشرون

« الجنود الاستراليون يزحفون صوب : زفتي »

شاع هذا النبأ في زفتي وفي القرى التابعة لها ، وترددت أصداؤه في جنبات المركز .. ليست المسألة إذن مجرد إعلان الاستقلال في جزء من أرض الوطن المحتل ، وإنما المهم هو حماية هذا الاستقلال ، والدفاع عنه ، وأخذ الخواجه « بني » يضحك ملء فيه ، ويمازح « الشيخ عنبة » قائلًا :

– الجمهورية الأولى معرضة للخطر يا « شيخ عنبة » .

فقال « عنبة » آسفاً :

– أحلام اليوم قد تكون حقائق الغد .

– لكنها جمهورية مضحكة على أي حال .

– لن تستسلم يا خواجه .

– هل تضايقت ؟ إنه ليشرفني أن أكون مواطنـــاً حراً في جمهورية ديمقراطية ، ولو كانت زفتي .. لكن الذي يدهشني هو.. كيف صورت لكم أوهامكم أنكم ستنجحون في هذا العمل الخطير، كان يكفي أن تشاركوا في الثورة بالوسائـــل المعروفة في كل أنحاء القطر .

قال عنبة :

– لعلي لا أذيع سراً حين أقـول .. إن بعض الثوار كانوا ينوون عزل السلطان .

قال الخواجه :

– السلطان لا يعزل في وجود الإنجليز .

هز « عنبة » رأسه قائلًا :

هذا حق .. لكننا سنقاوم .

وسادت الناس فورة من الحمـــاس المجنون .. وزحف بعض الأهلين نحو زفتي للمشاركة في الدفاع عنها بالأسلحة البدائيـــة .. الفؤوس والعصي والبنادق العتيقـة .. ووافق « الشيـخ عنبة » على ذلك .. وأخذ « أحمد افندي شلبي » يرتدي ملابسه مزمعاًالسفر، ودخلت أمه :

– لن أتركك تخرج إلا على جثتي .

فنظر إليها « أحمد » مبهوتاً :

– لا داعي لهذا الكلام .. لست طفلاً .. إنني رجل وأعرف ماذا أفعل .

– لن أتراجع .

– يا أمي .

– لم تزل جريحاً .. ومقاومة القوات المسلحة المدربة جنون ..

كان « أحمد » يشعر حقيقة بالألم في فخذه ، ولم يكن على استعداد لممارسة أي نشاط عنيف مما تحتاجه المعارك الدامية ، لكن كيف يتخلي عن المعركة وهو عضو في اللجنة .. ومشرف على جريدة الجمهور .. وواحد من الطليعة التي تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية !

وسافر « الشيخ عنبة » ولكن « أحمد » لم يسافر .. ورأى «الشيخ عنبة» في زفتي عدداً وفيراً من أهالي المدينة والقرى المجاورة يحفرون الخنادق ، ويقيمون الاستحكامات .. ويوزعون قواتهم في مختلف الأماكن .. استعداداً للمعركة ، ولم يكن هناك فيهم من يفكر في أن المقاومة لا جدوى منها ، إنها معركة خاسرة .. جمهورية بلا جيش وبلا سلاح ، محدودة المساحة .. قليلة السكان ، وتريد أن تقاوم قوات الإمبراطورية الضخمة التي انتصرت في حرب عالمية طاحنة .

وجاء « إسماعيل بك حمد » مأمـور المركز .. لم تنطمس من فوق ملامحه أمارات الطيبة والتأثر .. كان الرجـل ينظر إلى الأمر من زاوية سليمة . ويدرك خطورة الأمر ومضاعفاتـه إذا ما أصر الأهلون على المقاومة .. وكان هـــو الآخر – كممثل للسلطة الإدارية – في وضع حرج .. إذ كيف يبيح لنفسه أن يشهد تلك التصرفات الخارجة التي تتصل مباشرة بوضـــع السلطان كوارث للعرش ؟ واعتصم المأمور بالحيلة والإقناع الهادىء ، وأخـذ يذكر لهم احتمالات الموقف المنتظر ، والنتائج المترتبة على المقاومة ، ومـا سيجره ذلك من وبال عليه وعلى الأهلين .. واستطاع المأمور أن يقنع عدداً كبيراً منهم .. وحاول جاهداً أن يبسط جـــو الهدوء والسكينة على المدينة التي لم يستمر حلمها طويلاً ، وحينما حاصرت القوات الاسترالية المدينة ، وألقت بعض قذائفهـا ، تقدم إليهم ، وهون لهم الأمر ، وأفهمهم أنه لم يحدث شيء ذو بال وأن المسألة لم تخرج عن كونها تنظيماً محلياً ، بعد أن اضطرب حبل الأمن ببعض الرجال المستنيرين .. وأن المدينة تفتح أبوابها لهم .. دون داع لإراقة الدماء . . أو اتخاذ الوسائـــل العنيفة طريقاً لبسط النفوذ .

ودقت الأقدام الغريبة أرض المدينة التي فجعت في آمالهـــا ، وانتشروا في الشوارع والحارات ، وعاد الصمت العاصف الغاضب

يبسط رواقه على أحيائها .. وكفت ماكينات الطباعـــة في محل « عجينة » عن الحركة وتوقف صدور جريدة الجمهور .. وانتظر الناس على مضض ما يجد من أحداث .. وعاد « الشيخ عنبة » إلى القرية يجر أذيال الحسرة والخيبة .. وعندمـا قابله « الخواجه يني » في الطريق قال :

– ما هي آخر الأنباء أيها الثائر العظيم ؟.

فسدد إليه « عنبة » نظرات نارية وقال :

– استسلمت الجمهورية .

– هكذا بسرعة ؟

– مؤقتاً يا خواجه .

– ومتى تعود ؟

– ستعود الجمهورية عندما يشاء الله .. وعندمـا تعود فستشمل مصر كلها .. لا زفتي وحدها .

* * *

واهم من يظن أن التضحيات بلا ثمن .

لقد رأت قوات الاحتلال ألا بد أن تتراجع .

أعلنت الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه .

ووعدت بعض الوعود البراقة المعسولة .

لكن « سعد » خرج من منفاه دون تغير يذكر .. الإنجليز مصرون على الحماية ، ومؤتمر الصلح ـ الأمل الكبير ـ أقر الحماية ، وأقرها معه « ويلسون » الذي ترددت تصريحاته عن تقرير المصير في شتى أنحاء الأرض كذباً وبهتاناً .. وظلت المحاكمات العسكرية قائمة .. وجاءت لجنة إنجليزية تدعى لجنة « ملنر » لدراسة الأحوال، فقاطعها الشعب احتجاجاً على بقاء الحماية .

وشبت نيران الثورة من جديد .. واندلع لهيبها في كل مكان .. وذهب وفد للمفاوضات في لندن ، ودارت المفاوضات في حلقة مفرغة..إن المفاوضات مأساة جديدة، يحاول الاستعمار أن يشغل بها الأمم المكافحة .. تضييعاً للوقت ، ولكي يجد ثغرة ينفذ منها إلى أغراضه الخبيثة ..غير أن الطوفان لا تخدعه الألاعيب الصغيرة ، ولا يهمه أن تفرج السلطات عن ثلاثة زعماء أو أكثر أو أقل ، ولا يكترث للأوهام والأخاديع التي يروج لها الأعداء والأذناب .. الطوفان ينطلق ، لأن فيه طاقة ذاتية تحركه . . الطوفان ينطلق .. والرايات المصبوغة بالدم تخفق . . والأرض

الخضراء تشتعل بنيران الحنـــق والتمرد على الطغيان ..
والأمة تعيش بلا وزارة .. لا يجرؤ واحد من الباشوات أن
يتسلم مقاليـــد الحكم إبان ثورة الطوفان الصاخب .. ومن
يحاول طعن النضال المقدس تلاحقه الاعتداءات ، ويكمن له
الموت في كل مكا .

الفصل الثاني والعشرون

لا ينكر أحد أن « الخواجه يني » ـ اليهودي الأصل بارع في طرق الاستغلال ، متمكن في فن إنماء الثروة ، وإرباء ماله ، حتى لكأنه قد ولد وليس له رسالة في الوجود سوى جمع المال بأية وسيلة، وكان طريقه شائكاً ، لكنه كان شديـــد الحرص ، يعرف متى يتراجع ، ومتى يتقدم ، ومتى يهرب من المعركة ، وكان يعتقـد بحكمة غريبة لعله هو مؤلفهـــا ، وهي « لكي ينمو مالـــك .. وتنجح في الحياة .. يجب أن تعيش بلا ضمير » .. ومن ثم كان يعتبر الرحمة سذاجة .. والتصدق ـ لغير هدف ـ غباء والصداقـة ـ دون هدف مادي ـ لا وجود لها .

ولا ينكر أحد أيضاً ، أن « الخواجه يني » رجـل ذكي ، أو مفرط الذكاء .. فلقد نظر فرأى أن القرية أثناء الحرب .. غيرها في عام ١٩١٩ عام الثورة والانطلاق والأفكار الجديدة .. أصبح

الناس يدركون وضعهم ، ويفهمون أن لهم حقوقاً ضائعة يجب أن تسترد .. وأن لهم - كبشر - نصيباً في الحرية يجب أن يأخذوه أخذاً .. ولم يعد خافياً عليهم أن مصير بلدهم مهدد .. وأن من احتلوها دخلاء .. لا يرتكز بقاؤهم فيها على أساس شرعي ، وأدرك الناس قيمة العلم . . فأخذوا يبعثون بأبنائهم إلى المدن كي ينهلوا المعارف في المدارس المختلفة .. ورأى أهل القرية بأعينهم أن الخمر التي يبيعها « الخواجه » فساد وبوار ، وأن التعامل مع « الخواجه ».. على تلك الصورة البشعة ، مآله الخراب والإفلاس .. وأن مساندة الظلم خسة وفناء .. كما حدث « لخفاجة » .

أدرك « الخواجه » كل ذلك ، فلم يكن أعمى حتى لا يرى الطفل وقد تحوّل إلى شاب قوي .. والنوم قد رحل وحلت محله يقظة شاملة .. ورأى أنه لا بد من تغيير سياسته .. الإنجليز — بقواتهم وعنفوانهم — تراجعوا وخففوا من لهجتهم ، وليس « الخواجه » أقوى منهم حتى يصمد ويتمادى في استغلاله .

وقرر « الخواجه » أن يتحول من القرية إلى المدينة .. واختار الذهاب إلى الإسكندرية .. وفي الإسكندرية « البورصة » والأسهم والسندات وتجارة القطن ، ومعه المال الكثير ، ولديه الإيراد السنوي الضخم ، ومئات الأفدنة ليست بالثروة البسيطة .. هناك سينمو على نطاق واسع .. وسيصبح عميلاً هاماً في البنوك .. وواحداً من المستوردين والمصدرين للسلع الاستهلاكية .

والحاج « إبراهيم » وكيله رجل يعتمد عليه .. ولن يتهاون مع

أهل القرية ثم إنه تتلمذ على يديه ، وقد يتمكن من فرض السيطرة الكاملة على الفلاحين ، فللأرض قيمتها ، وكل فلاح في حاجة إلى أرض يزرعها.. لأن أغلبهم معدمين، أو من صغار الملاك.. لا شك أن الأمور ستمضي على يرام .

أجل .. لقد استنفذ « الخواجه » أغراضه من القرية .. وأصبحت القرية مجموعة من القاذورات ، ومباءة للذباب والبعوض والتراب والأمراض .. لكن الإسكندرية ستكون نظيفة جميلة ، وسترعرع فيها آماله الجديدة .. ومع ذلك فسيظل كنز القرية يدر عليه الكثير .

كان « الخواجه » يجلس عصر يوم من الأيام .. يفكر في تنفيذ الخطة التي درسها بدقة وإمعان .. ورأى امرأة تدلف إلى الداخل لابسة ثوباً أسود ضافياً . متلفعة بشال أسود أيضاً تخفي جزءاً كبيراً من وجهها الشاحب ، وتذكر « الخواجه » أيام زمان.. تذكر الأرامل اللاتي كن يجئن تحت جنح الظلام .. أو متخفيات أثناء النهار ، ويطلبن منه قرضاً .. ويوقعون على أية نسبة يفرضها عليهن كربا .. وتذكر كيف كان يطرب لمجيئهن ، ويستشعر سعادة ما بعدها سعادة .. لكنه لأول مرة لا يشعر بارتياح لمقدم تلك المرأة ، لعل السبب في ذلك هو إلغاؤه للخطة القديمة .. وصب اهتمامه كله على السياسة الجديدة التي يزمع انتهاجها.

وقفت المرأة قبالته ، وطأطأت رأسها في ذلة وقالت :

ـ أعرف أفضالك على زوجي .

فقال في جفاف :

ـ ثم ماذا ؟

ـ وظل مخلصاً لك طول حياته .

ـ تشرفنا .

فأزاحت الغطاء عن وجهها وقالت :

ـ ألا تعرفني ؟ أنا أرملة « خفاجة » .

وهتف « الخواجه » في دهشة :

ـ خفاجة ؟

ـ أجل .. أنا زوجته .

فهز رأسه في ضيق وتمتم :

ـ الله يرحمه .

ـ جئت إليك .. وأنا واثقة أنك لن تخيب رجائي .. منذ أن مـــات ونحن في حيرة .. « الحاج إبراهيم » وكيلك طردنا من الأرض .

ـ لأنكم لم تدفعوا إيجارها .

ـ كنا في ضائقة .

ـ وماذا تريدين الآن ؟

ـ فدانين اثنين نرتزق منهما .

رد في برود :

ـ آسف .

قالت في دهشة :

ـ كيف ؟ لسوف أدفع الإيجار كغيري من الناس .

ـ آسف .

ـ لماذا ؟

ـ لأن الذي يخل باتفاقاته معي مرة واحدة لا أئتمنه بعد ذلك .. أنت تعرفين .

ـ نحن لم نغدر .. كان موته مفاجأة .. ثم إنك كنت وعدته بإعفائه من الإيجار . . كان صديقك يا « خواجة » . . . ترى أن عطفك على أولاده ـ وأنت قادر على ذلك ـ حسنة تقدمها لصديق قديم ؟

لم يعد لدى « الخواجة » ذرة من صبر .. فهتف في تأفف :

ـ عندما مات « خفاجة » ... مات كل شيء .

ـ حتى الصداقة ؟

ـ لا أصادق الموتى .

ـ لكن الوفاء لذكراه واجب

ـ لا وفاء لقاتل . . لم أحبه يوماً . . كنت أتقي شره ، أنت تعرفين .. أمن الضروري أن أتكلم بصراحة .. اذهبي وإلا استدعيت الخفير .

خرجت متعثرة ، ودمعتها على خدها .. لم تكن في يوم من الأيام أشد حنقاً على زوجها من هذه اللحظات .. مات ، ولم يترك وراءه أثراً طيباً ، حتى أصدقاؤه تنكروا له ، ومات وترك لها أطفالاً وفقراً وذكرى سيئة مشينة .. وضحايا وأحزاناً .. أين تذهب ، وقد كان مفتاح رزقها في يد شيطان لا يرحم فغدر بها ؟ ليس هناك فائض من الأرض عند أحد .. ماذا تفعل ؟

لكن صوت « الشيخ عنبة » يتردد في آذانها ، وهو يناقش أموراً سياسية مختلفة مع فئة من الرجال ، إنه يتكلم عن « سعد » و« لجنة ملنر » ، وعن السلطات الإنجليزية التي أعدمت مأمور بندر أسيوط بتهمة تسليمه أسلحة للثوار ، حيث كان من نتيجة ذلك مصرع عدد من الجنود والضباط الإنجليز .. وكيف أن السلطات رفضت تخفيف الحكم الصادر ضده . لم تكن زوجة « خفاجة » تعرف كثيراً عن السياسة ، ولم يكن في رأسها شيء سوى مشكلة واحدة « لقمة العيش » ولا شيء غيرها .. و«الشيخ عنبة » رجل طيب طاهر ، حقاً إن « دكانه » فيه قليل من البضائع . لكنه لا

يتراخى عن تأدية الواجب .. لقد سمعته من وراء ستار ذات ليلة ، وهو ينصح زوجها . كانت كلماته تصل إلى قلبها . ولكن زوجها أصم أذنيه وقلبه عن النصيحة . لقد عادت إلى ذا كرتها تلك الليلة.. ليت « خفاجة » سمع النصيحة واستقام .. إذن لما تشردوا وقاسوا الأهوال اليوم .

ووقفت تنتظر انصراف الناس.. لم تنتظر سوى بضعة دقائق ، لكنها كانت طويلة مملة،وعندما أصبح وحده ، دلفت إليه وشرحت له الأمر .. أطرق ساهماً، ثم قال:

– عودي إليّ في الصباح الباكر .

ظلت طول الليل تحلم بالغد .. أحقاً تتحقق المنى ، ويرزقها الله بقطعة أرض تزرعها بالإيجار ؟ وإذا حدث ذلك .. فهل يمكنها أن تقوم على خدمة الأرض هي وأولادها ؟ إنها على استعداد لأن تذهب إلى الغيط هي وأولادها ، فليس هذا بجديد عليها ، ستزرع القطن والذرة والقمح، وتجني المحصول آخر العام .. أحلام كثيرة، وذكريات مريرة كانت تصطرع في قلبها .

كانت تستعد في الصباح للذهاب إلى « الشيخ عنبة » .. لكنها تسمع دقات على الباب ، وتذهب لتجد القادم هو « الشيخ عنبة »، إنه يقود حماراً..وفوقه جوال ممتلىء، وقال «الشيخ عنبة»:

– بضعة كيلات من الذرة .. مجرد دين عليك سوف آخذه فيما



وعندما أصبح وحده دلفت إليه وشرحت له الأمر . . أطرق ساهماً ثم قال :

[illegible] في الصباح الباكر

بعد .. أرجو ألا ترفضيها .. ولقد اتفقت مع حضرة « العمدة » على أن يعطيك فداناً تزرعينه بالإيجار ؟

فدقت على صدرها ، وهي لا تكاد تصدق وقالت :

ـ حضرة العمدة ؟

ـ أجل .. إنه رجل طيب .. ثم إنه لا يحقد عليك .

ـ لقد أردنا قتله .

لننس ما فات .. كلنا أخوة .. والستار هو الله .

* * *

وسافر « الخواجه » إلى الإسكندرية نهائياً .

وبقيت « عزبة الخواجه » .

الفصل الثالث والعشرون

الثورة لم تتوقف وإن انتابتها فترات هدوء ، والهدوء أمر طبيعي وله مبررات في كثير من الأحايين ، قد يكون قسطاً من الراحة ، يستجمع فيه المناضلون قواهم ، ويلمون شتاتهم ، ويلتقطون أنفاسهم بعد مسير طويل ، وقد يكون الهدوء فرصة للتروي .. لعل العدو ينظر إلى الأمر بعين العدل والعقل ، ويستجيب لنداء الضمير ، فيخلي السبيل أمام موكب الحرية كي يتقدم، وقد يكون الهدوء من جراء وعد معسول .. أو تسليم مبدئي بالحق المطلوب.. فليس من المعقول أن يلجأ المناضلون إلى الثورة والعنف والتضحيات في وقت يمكنهم أن ينالوا أهدافهم الشريفة دون إراقة دماء ، وهذا ما كان يحدث دائماً في أيام المفاوضات .. والتي كانوا يطلقون عليها حل القضية بالتفاهم والطرق السلمية .

لكن الطوفان لا يعرف التوقف.. ولا يعرف الهدوء أيضاً ..

قد لا ترى العيون تدفق الطوفـــان على السفوح ، وعبر الأرض الخضراء .. لكن الطوفان له مجرى آخر .. قد يخط طريقـــه في الأفكار والعقول .. كل يوم يجد جديد،وتكسب الجماهيرخبرات، وتنمو مداركهم مع الأحداث وفي داخلهم ينطلق الطوفان بسرعة الريح .. ويقبل مارس عام ١٩٢١ ، ويؤلف « عـدلي » وزارة جديدة.. تكون مهمتها التفاهم مع الإنجليز من أجل نيل الاستقلال، ويشترط الإنجليز ضمان مصالحهم – وهو تعبير مطاط – قبل بدء المفاوضات ، ويطلقون على الوزارة الجديدة « وزارة الثقـة » وتمر فترة قصيرة من الهدوء النسبي .

وينظر « عبد العزيز شلبي » فيرى ابنه « أحمد افندي » وقـد أصبح « باشمهندساً » ، أول باشمهندس في القرية .. ويرى « عبـد العزيز » أهل القرية وقد أحاطوا بولده من كل جانب .. يباركون شبابه بكلماتهم المخلصة.. ونظراتهم التي تفيض حباً وتقديراً،ويطلب منـــه بعضهم أن يتوسط لدى أولى الأمر حتى لا يضيقوا عليهم في توزيع مياه النيل .. وحتى لا يحرموهم منها ويتركوها تفيض على عزب الباشاوات والأغنياء الكبار ، ويؤكد لهم « أحمد » أنه لن ينساهم لأنه ابنهم جميعاً ، ولا يعقل أن ينسى الابن أهله ، وينقض عليه « الشيخ عنبة » لا يدري من أين أتى ، ويقول :

– ولا يمكن أيضاً أن ينسى أصهاره . بلدك فين ياجحا قال اللي فيها مراتي .

وضحك الجميع .

ويذكر « أحمد .. صابرين » التي طال صبرها . . فيلتفت إلى أبيه متسائلا :

ـ متى ؟

ـ في الوقت الذي تشاء .

ويضحك « عنبة » قائلا :

ـ ما هذه الألغاز ؟ أفيدونا عن موضوع الهمس .

فيبتسم « أحمد » ويقول :

ـ لاشك أن « الشيخ عنبة » سيكون وكيل العروسة .

وكيل عروسة شيء جميل . أما وكيل « الخواجه يني » فأعوذ بالله .

فاجتاحت الواقفين موجة من المرح الحقيقي ، وأعجبتهم دعابة « الشيخ عنبة » الذي يهدف إلى نقد « الحاج إبراهيم » وخاصة أنه قد تحول في تلك الأيام إلى حاج غريب لا يفترق كثيراً عن «يني».

ولا يكاد ينصرم شهر واحـــد حتى تكون قريتنا غارقة في الأفراح . . إن الباشمهندس يتزوج « صابرين » وحضرة العمـــدة يجلس في الصدارة ، وعن يمينه « الشيخ عبـــد العزيز شلبي » وعن يساره « الشيخ عنبه» ، ثم « أبو المعـــاطي الشافعي » .. ودقات

الطبول تكاد تصم الآذان ، والزغاريد تتردد صداها في آفاق القرية ، وزوجة العمدة تطبع قبلة حانية على خد فتاتها وتهتف والدموع ملء عينيها : ألف مبروك يا حبيبتي » .

* * *

« الشيخ عنبة » قد تقدمت به السن . . لكنه حريص دائماً على مجالسة الشباب .. كلهم أبناؤه ، ويظل يحدثهم في « دكانه » الصغير عن ثورة عرابي . وعن حبيبه « جمال الدين الأفغاني » وعن جمهورية زفتي في ثورة ١٩١٩ ويحدثهم عن أحلامه الخاصة بتوزيع الثروة ، ويؤكد لهم أن الأرض حق لمن يزرعها ، وأنه دعا إلى ذلك كثيراً .. الكن لا حياة لمن تنادي ، ويروي لهم الكثير عن روائع الشعر التي تتغنى بمجد الوطن .. ويقرأ لهم شعر « حافظ إبراهيم » بصوت متهدج مؤثر . ثم لايفتأ يقول لهم :

ـ يا أبنائي .. القضية واضحة .. ها أنتم ترون أن المفاوضات على وشك التوقف ، ووزارة الثقة توشك أن تنهار .. والإنجليز هم الإنجليز .. إن أدق وصف ينطبق عليهم هو ما قاله واحد منهم اسمه « مستر بلنت » وهو صديق حميم لنا ـ لقد قال في عام ١٩١٠ : احذروا منا . . فإننا لا نريد لكم شيئاً من الخير . . لن تنالوا منا الدستور ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . . وما دمنا في مصر .. فالغرض الذي نسعى إليه هو البقاء فيها . . هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية في منشستر . . وأن نستخدم أموالكم لتنمية مملكتنا الإفريقية في السودان ، وأن نستمر بأقل حياء من

الماضي في تنمية مشروعاتنا المالية الإنجليزية الصهيونية في بلادكم ، وأن نقيد أيديكم وأرجلكم لنجعلكم هدفاً لأطماعنا الاقتصادية . لم يبق لكم عذر إذا أنتم انخدعتم في نياتنا ، بعد أن وضح الأمر فيها وضوحاً تاماً . . فاحذروا أن تساقوا إلى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها . ثابروا على أن تعارضونا معارضة جهرية جريئة كل يوم • • اطلبو بلسان واحد ، وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون منه ، وأن نعود نحن إلى حظيرة القانون .. وأن نسحب جنودنا من بلادكم.. وأن نكف عن التدخل في شؤونكم .. اطلبوا ذلك فإنكم بطلبه لا تخسرون شيئاً ، إذ نحن غرباء في بلادكم ، ومن حقكم أن تطالبونا بتركم . ذكرونا دائماً وبكل وسائل الإعلان بأن لا حق لانجلترا في أن تتصرف عندكم تصرف السيد ، وأنكم لا تريدوننا حامين لكم ، ولا مستشارين ولا منظمين لإدارتكم . . ولا تتركوا لنا عذراً نعتذر به لندعي لأنفسنا شيئاً من ذلك . وفي اليوم الذي يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم لا توازي المتاعب والأخطار التي يسببها لنا ، نرى انكم محقون ونترك بلادكم ، وثقوا بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة .

هذا ما قاله مستر « بلنت » يا أبنائي الشباب .

ويجفف « الشيخ عنبة » عرقه ، ثم يستطرد :

– هذا هو القول الحق .

فيرد شاب متحمس يقول وقد سيطرت عليه موجة من الانفعال:

ـ إننا لم نفعل في ثورتنا غير ذلـــك . . نحن نعرف الطريق وحدنا .

ويبتسم « الشيخ عنبة » وتمر بذاكرته ألوان شائقة من قصص الكفاح ، ويهمس :

ـ لكن الحكومـة لا تفعل ذلك الآن . . لقـــد قنعت بالمفاوضات . . ودوركم أنتم أن تحيلوا هذه الأحاديث المملـة ـ المفاوضات ـ إلى صرخات مدوية . . إلى ثورة حقيقية . فالحرية تؤخذ ولا تستجدى .. هكذا يقول التاريخ. .وفي هذا المعنى كان يتحدث حبيبي دائماً . . .

* * *

إن رحلة الطوفان لم تنته . . .

الطوفان ينطلق عشرات السنين دون كلل أو ملـل .. إن له غاية .. ولا بد أن يحقق غايته .. وتتصدى للطوفان قـــوى الشر والغدر ، وتدور المعارك الدامية العنيفة ، ولا يبلغ الطوفان مجراه الأصيل إلا في عام ١٩٥٢ ، حيث يتحول الطوفان إلى نهر للحياة. . يمد الأرض الطيبة بالنماء والخصب والحرية .

لقد مات « عنبة » منذ ثلاثين عاماً .. لكن أفكاره لم تمت . . أعلنت الجمهورية ، لا في « زفتي » وحدها ، ولكن في مصر كلها . .

وعادت الأرض إلى الفلاحين أصحابها الحقيقيين .. وحمل الاستعمار عصاه ورحل ذليلًا ، وتحقق النداء الخالد الذي ظل يتردد عشرات السنين في صبر وإيمان .

وتبحث عن « صابرين »حرم « أحمد أفندي » فتجدها قدتخطت الخمسين من عمرها ، وبدت التجاعيد على وجهها الطيب الوقور ، وتبحث عن « أحمد أفندي شلبي » فتجده يزحف نحو الستين ، والابتسامة تعلو شفتيه ، وهو يتحدث عن ولده « خالد » مهندس الكهرباء في السد العالي .. وتسأل عن عزبة « الخواجه يني » ، فيحدثونك بأنها قد تحولت إلى ملكيات صغيرة لأهالي قريتنا الذين صبروا طويلًا .

(تمت)

فهرس

القسم الأول
في جحيم الحرب

القسم الثاني

طوفان الثورة